

Vol 2, Issue 2

May 2017, Shaban 1438

المجلد الثاني – العدد الثاني

مايو | ايار 2017 الموافق شعبان 1438

ISSN 2058-637X = Majallatul Edarah Wal Qiyadah Al-islamiah

مجلة الإدارة والقيادة الإسلامية

لندن - المملكة المتحدة

This journal is published in the United kingdom

ISSN 2058-637X



الهيئة العالمية للتسويق الإسلامي

International Islamic Marketing Association

- حقوق النشر والطبع محفوظة للهيئة العالمية للتسويق الاسلامي والجهات المخولة
- لا تقبل المجلة بازواجية النشر او اعادة النشر الا باذن مسبق
- رسوم الاشتراك السنوي: المؤسسات 100 دولار | الافراد 70 دولارا
- لا تستوفي المجلة اية رسوم لتقديم ونشر الابحاث
- للتواصل والمراسلات:

ايميل: | alserhan@yahoo.com | swidi@qu.edu.qa

هاتف: 00974 30453526 قطر|

مجلة الإدارة والقيادة الإسلامية

تصدر بأشراف الهيئة العالمية للتسويق الإسلامي في بريطانيا

رئيس التحرير

الدكتور عبد الله قائد السويدي

كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر

المنسق العام

الدكتور حميد جليدان.

كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر

لتقديم الأبحاث: swidi@qu.edu.qa | swidi75@yahoo.com

هيئة التحرير التأسيسية

- الأستاذ الدكتور عصام محمد الليثي. أكاديمية السودان للعلوم المصرفية والمالية-الخرطوم. السودان
- الأستاذ الدكتور علي شاهين. مساعد نائب الرئيس للشئون الإدارية - الجامعة الإسلامية - غزة. فلسطين
- الأستاذ الدكتور سالم عبد الله حلس الجامعة الإسلامية بغزة - فلسطين
- الأستاذ الدكتور مرداوي كمال. جامعة منتوري - قسنطينة. الجزائر
- الدكتور فيصل بن جاسم آل ثاني. كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر
- الدكتور بكر أحمد السرحان كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر
- الدكتور مراد النشمي . كلية العلوم الإدارية - جامعة العلوم والتكنولوجيا، اليمن
- الدكتور شايف جار الله. كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر
- الدكتور جعيثن الحربي. كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر
- الدكتور مصطفى عبدالكريم. كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة قطر
- الدكتور سامر ابوزنيد. رئيس جامعة الخليل. فلسطين
- الدكتور محمد اليحيا -كلية إدارة الأعمال-جامعة شقراء-السعودية
- الدكتور بن عبو الجيلالي. نائب عميد كلية الاقتصاد والإدارة - جامعة معسكر. الجزائر
- الدكتورة تهاني بنت عبد الله القديري. جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض
- الدكتورة شبيلة عائشة. المدرسة العليا للتجارة. الجزائر
- أسماء عبد الواسع الحسام, جامعة ماليزيا برليس-ماليزيا
- الدكتور بشار المنصور, جامعة طيبة , المدينة المنورة, السعودية

- 5-.....محددات سلوك المستهلك في الإسلام
- 21-.....الوقف ودورة في دعم مؤسسات التعليم العالي: وقف جامعة الملك سعود نموذجاً
- 37-.....مناهج المؤلفين المسلمين في كتب الخراج والأموال: قدامة بن جعفر نموذجاً
- 54-.....دور الطب الإسلامي في تطور في تطور العلوم الطبية الحديثة في أوروبا
- 76-.....جريمة الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

محددات سلوك المستهلك في الإسلام

طبيي أسماء. أستاذة بجامعة الدكتور الطاهر مولاي

سعيدة الجزائر

رقم الهاتف: 0559449997

العنوان الإلكتروني: taibi.asma@yahoo.fr

أتقدم بالشكر الجزيل لكافة أعضاء هيئة المؤتمر العالمي للتسويق الإسلامي وعلى رأسهم رئيس المؤتمر الدكتور بكر أحمد السرحان على تنظيمهم لمؤتمر عالمي بهذا المستوى.
كما أشكر الأستاذ الحبيب ثابتي على توجيهاته القيمة.

المقدمة:

يحتل المستهلك نقطة الصدارة في العملية التسويقية الحديثة كونه بداية ونهاية النشاط التسويقي للمؤسسات، لهذا فقد نال من الاهتمام الكثير وصار العنصر الأساسي الذي توليه المؤسسة انتباهها كونه العنصر الوحيد الذي يضمن لها البقاء والاستمرار.

ولهذا صارت المؤسسات في الوقت الحالي تحاول اكتشاف حاجات ورغبات هذا المستهلك مبكرا لتمكن من إنتاج ما هو قادر على تلبية هذه الاحتياجات، وبهذا تحقق مصلحته وتلبي احتياجاته من جهة وتضمن لنفسها النمو والتطور في السوق من جهة ثانية.

حظي المستهلك بالكثير من العناية في ديننا الحنيف فأتاح الله له أن يتنعم بنعمه ويتمتع بالطيبات من الرزق، وأباح له أن يشبع حاجته بنعم الله المختلفة في إطار الحدود الشرعية، وفي نطاق الاعتدال والتوسط في الاتفاق وتلبية الحاجات لأنه إن قل الاتفاق عن الوسط صار تقديرا وهذا منهي عنه في الاسلام، وإن فاق الوسط صار تبذيرا وهو أيضا أمر منهي عنه في ديننا الحنيف.

فالإسلام وإن كان يبيح الاستهلاك ويأمر به، إلا أنه وضع له حدودا وضوابط لا يجوز أن يتخطاها المستهلك، وبذلك تلتقي ضوابط العمل بضوابط الاستهلاك لتصب في مصب واحد وهو سد حاجة الفرد لتحقيق الخلافة في الأرض¹.

ونطرح الإشكال العام كالتالي: ماهي الضوابط التي تحكم سلوك المستهلك المسلم؟

وللاستعانة على الاجابة نطرح إشكالين فرعيين:

- ما المقصود بسلوك المستهلك؟

- ما هي محددات سلوكه في الإسلام؟

¹ كامل صكر القيسي، ترشيد الاستهلاك في الاسلام، الطبعة الأولى، 1429 هـ- 2008 م، ص 44.

أما فرضية الدراسة فهي:

زيادة على العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية هناك عوامل دينية تحكم سلوك المستهلك في الاسلام.

ولمناقشة أبعاد هذا الموضوع سوف نقسّمه إلى جزئين، حيث سوف نتناول في الجزء الأول مفهوم سلوك المستهلك والعوامل المؤثرة فيه بالإضافة إلى اتخاذ لقرار الشراء، أما في الجزء الثاني فسوف يخصص لدراسة الضوابط الشرعية لسلوك المستهلك المسلم.

I. مفاهيم عامة حول سلوك المستهلك واتخاذ قرار الشراء

لقد ساعدت التطورات التي شهدتها المفهوم التسويقي، من مفهوم الإنتاج إلى مفهوم البيع وصولاً إلى مفهوم التسويق، وأعطت الأهمية الكبرى للمستهلك بجعله نقطة البداية للنشاط التسويقي، وبدلاً من أن تحاول المؤسسات بيع ما أنتجته إلى المستهلكين، صارت تنتج ما يطلبه المستهلكون.

1.I. مفهوم سلوك المستهلك:

1.1.I. تعريف المستهلك:

أ. المستهلك هو الشخص الذي يشتري ويستهلك واحدة أو عدة سلع وخدمات من عند المنتج أو الموزع من خلال هذا التعريف نجد بأن المستهلك هو أي شخص يقوم باستعمال منتج معين، قد يكون سلعة أو خدمة باقتنائها مباشرة من المنتج أو بالاعتماد على وسيط (موزع) قد يكون تاجر أو وكيل.

ب. المستهلك هو الشخص الذي يشتري أو الذي لديه القدرة على شراء السلع والخدمات المعروضة للبيع بهدف اشباع الحاجات والرغبات الشخصية أو العائلية².

ويوضح لنا هذا التعريف بأن المستهلك لا يشترط أن يستهلك المنتج شخصياً حتى يعتبر مستهلكاً، وإنما يمكنه اقتناء المنتج ليستعمله أشخاص آخرون، مثلاً كإجراء الأب للمنتجات التي يحتاجها طفله.

ج. ويعرف المستهلك على أنه الهدف الذي يسعى إليه منتج السلعة أو مقدم الخدمة والذي تستقر عنده السلعة أو يتلقى الخدمة، أي هو محط أنظار جميع من يعمل في مجال التسويق³.

من خلال هذا التعريف نجد بأن المستهلك هو الحجر الأساسي في العملية التسويقية، وهو نقطة البداية التي ينطلق منها المنتج، ونقطة النهاية التي يصل إليها.

من التعاريف السابقة الذكر نستنتج بأن المستهلك هو كل شخص قادر وراغب في شراء منتجات قد تكون سلع أو خدمات أو حتى أفكار بغية استعمالها بشكل شخصي أو تقديمها للغير.

2.1.I. تعريف سلوك المستهلك:

² عنابي بن عيسى، سلوك المستهلك، عوامل التأثير البيئية، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، 2003، ص 16.

³ أيمن علي عمر، قراءات في سلوك المستهلك، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص 15.

اعطيت عدة تعريف لسلوك المستهلك واختلف باختلاف الباحثين والكتاب، من بين هذه التعاريف نذكر ما يلي:
 د. سلوك المستهلك هو مجموعة الأنشطة والتصرفات التي يقدم عليها المستهلكون أثناء بحثهم عن السلع والخدمات التي يحتاجون إليها بهدف إشباع حاجاتهم ورغباتهم فيها، وأثناء تقييمهم لها والحصول عليها واستعمالها والتخلص منها وما يصاحب ذلك من عمليات اتخاذ القرارات⁴.

من خلال هذا التعريف نجد بأن سلوك المستهلك يتضمن كل الأنشطة التي يقوم بها الفرد عند بحثه عن المنتج الذي يتوقع أن يشبع حاجاته، وقد تكون هذه الأنشطة ذهنية مثل القيام بالتقييم والمفاضلة بين المنتجات وقد تكون بدينية مثل التوجه إلى المتجر للشراء.

هـ. إن سلوك المستهلك يعرف بأنه مجموعة الأنشطة الذهنية والعضلية المرتبطة بعملية التقييم والمفاضلة للحصول على السلع والخدمات واستخدامها في الواقع العملي⁵.

و. وعرف Engel سلوك المستهلك بأنه الأفعال والتصرفات المباشرة للأفراد من أجل الحصول على منتج (سلعة أو خدمة) ويتضمن إجراءات اتخاذ قرار الشراء⁶.

يبين لنا هذا التعريف بأن سلوك المستهلك لا يضم إلا الأفعال المباشرة التي يقوم بها الأفراد بغية الحصول على المنتج. أي ان سلوك المستهلك هو مجموعة الأفعال والتصرفات التي يقوم بها المستهلك النهائي لشراء السلع والخدمات بغرض الاستهلاك الشخصي لها⁷.

نفهم من هذا التعريف بأن سلوك المستهلك يضم التصرفات التي يقوم بها المستهلك النهائي فقط بغية إشباع حاجاته الشخصية عن طريق اقتناء منتجات قادرة على تلبية هذه الحاجات.

3.1.I. خصائص سلوك المستهلك:

هناك مجموعة من الخصائص التي يقر المختصون بأنها تميز سلوك المستهلك وهي:

■ إن سلوك المستهلك يكون ناتجا عن تفاعل العوامل الداخلية والعوامل الخارجية، حيث أن المستهلك تتحكم به قوى داخلية كالشخصية والتعلم وقوى خارجية كالثقافة والطبقة الاجتماعية مثلا.

⁴ عنبر ابراهيم شلاش، إدارة الترويج والاتصالات، الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2011م-1432هـ، ص 92.

⁵ مؤيد الفضل، مدخل إلى الأساليب الكمية في التسويق، الطبعة الأولى، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2008م-1428هـ، ص428.

⁶ حميد الطائي، محمود الصميدعي، بشير العلق، ايهاب علي القرم، الأسس العلمية للتسويق الحديث، مدخل شامل، اليازوري، ص 113.

⁷ محمد عبد العظيم أبو النجا، إدارة التسويق، مدخل معاصر، الدار الجامعية، الاسكندرية، 2008، ص 196.

■ إن سلوك المستهلك ما هو إلا تصرف يقوم به الفرد لشراء منتج ما، حيث أن مجموع الأفعال التي يقوم بها الفرد من أجل اختيار ما يلائمه من منتجات قادرة على إشباع حاجاته ورجباته⁸.

■ إن كل سلوك أو تصرف إنساني لا بد أن يكون وراءه دافع أو سبب إذ لا يمكن أن يكون هناك سلوك أو تصرف بشري من غير ذلك، مثلا توجه الأب إلى الصيدلية وراءه دافع وهو الرغبة في الحصول على الدواء لعلاج ابنه.

■ إن السلوك الانساني نادرا ما يكون نتيجة لدافع أو سبب واحد، بل في أغلب الحالات يكون محصلة عدة دوافع وأسباب، إذ أن الدوافع تتعدد وتختلف لينتج عنها سلوك واحد، مثلا التسجيل في مدرسة لتعلم اللغات الأجنبية يكون وراءه عدة دوافع مثلا تعلم اللغات الأجنبية، الانتماء إلى طبقة اجتماعية معينة، وتحقيق الذات.

■ إن السلوك الانساني سلوك هادف، فمن خلال قيام الفرد بسلوك معين فإنه يسعى لتحقيق هدف ما مثلا قيام الفرد بالتسوق بغية الحصول على ما يلزمه من أغراض.

■ إن السلوك الانساني ليس سلوكا منعزلا بل يرتبط بأحداث تكون قد سبقته وأخرى قد تتبعه، مثلا القيام بتعبئة رصيد الهاتف، سبقه الاحساس بنفاذ الرصيد ويليها إجراء المكالمات التي يحتاجها الفرد.

■ السلوك الانساني سلوك متنوع، أي أنه يظهر في صور متعددة حتى يواءم مع الموقف الذي يواجهه مثلا سلوك الفرد عند شرائه لسيارة يختلف عن سلوكه عند شراء قالب حلوى، ففي كل حالة نميز درجة عناية معينة وبالتالي سلوك مختلف.

■ كثيرا ما يؤدي اللاشعور دورا هاما في تحديد سلوك الانسان، حيث غالبا ما يجهل الفرد السبب الذي أدى به إلى القيام بسلوك معين. مثلا إذا سئل المستهلك عن سبب شرائه لمعطف بهذا اللون فقد تكون إجابته "لا أعرف".

■ السلوك الانساني عملية مستمرة وملتصقة إذ لا توجد فواصل تحدد بدء كل سلوك أو نهايته مثلا توجه المستهلك لشراء المواد الغذائية ثم شراء الخضار والفواكه ثم التوجه إلى البيت فلا نجد أي فواصل ملموسة بين هذه السلوكيات بل هي عملية مستمرة.⁹

2.I. العوامل المؤثرة على سلوك المستهلك

⁸ حميد الطائي، محمود الصميدعي، بشير العلق، إيهاب علي القرم، مرجع سابق، ص 114، بتصرف.

⁹ محمد صالح المؤذن، مرجع سابق، ص 27-29، بتصرف.

هناك عدة عوامل تؤثر على سلوك المستهلك وتقوده للتصرف بطريقة معينة دون سواها، وهناك من الباحثين من قسمها إلى عوامل خاصة وأخرى عامة، وهناك من قسمها على أنها داخلية وخارجية، وهناك من فصل بأن هناك عوامل نفسية، وأخرى شخصية، وأخرى اجتماعية وعوامل ثقافية وعوامل اقتصادية.

1.2.I. العوامل النفسية:

- **الحاجة:** الحاجة تعني حالة من النقص ينتج عنها إحساس بعدم الراحة¹⁰، وهي تعني السلوكيات الضرورية من أجل بقاء أو صحة الفرد¹¹. يمكن أن تكون الحاجات طبيعية كالشعور بالجوع أو بالبرد، ويمكن أن تكون نفسية كالحاجة إلى الحب.

- **الدافع:** وحسب عنابي بن عيسى¹² فإن الدافع و تلك الحالة أو القوة الداخلية النابعة من الفرد والتي تنشط الفرد وتحركه وتدفع سلوكه تجاه أهداف محددة.

- وحسب حمد غدير هي الحاجات والرغبات والغرائز الداخلية للفرد، حيث أن جميع حركاته سواء كانت شعورية أو لا شعورية، تعتبر محركات داخلية للسلوك، وهي بالتالي تختلف عن الحوافز التي تعتبر عوامل خارجية¹³.

- **الإدراك:** الإدراك من وجهة النظر التسويقية هو العملية التي تشكل انطباعات ذهنية نتيجة لمؤثر معين داخل حدود معرفة المستهلك، ويعطي المستهلك الكثير من المعاني لما يراه ويلاحظه. وتعتمد تلك المعاني على خبرته الشخصية وعلى الذاكرة وعلى معتقداته¹⁴.

- **التعلم:** التعلم يمثل التغيرات الحاصلة في سلوك الأفراد نتيجة للتجارب السابقة التي مروا بها، وكذلك يعرف التعلم على أنه التغيرات في سلوك الفرد نحو الاستجابة تحت تأثير خبراته أو ملاحظته للأنشطة التسويقية¹⁵.

- **المواقف والاتجاهات:** المواقف هي حالة ذهنية للتحضير المنظم عن طريق الخبرة، تمارس تأثير مباشر على استجابة الفرد تجاه الأشياء والوضعيات التي يكون له علاقة بها¹⁶.

2.2.I. العوامل الشخصية:

- **السن والمرحلة من دورة الحياة:** تختلف حاجات ورغبات الأفراد باختلاف سنهم والمرحلة التي يمرون بها في حياتهم، فمثلا احتياجات الطفل تختلف عن احتياجات الشاب وتختلف أيضا عن احتياجات الشيخ.

¹⁰ Sylvie martin Védrine, initiation au marketing, édition d'organisation, 2003, p50.

¹¹ Denis lindon, Frédéric jallat, le marketing, 5^e édition, dunod, 2005, p49.

¹² عنابي بن عيسى، مرجع سابق، ص32.

¹³ حمد الغدير، رشاد الساعد، سلوك المستهلك مدخل متكامل، دار زهران، الأردن، 1999، ص63.

¹⁴ محمد سعيد عبد الفتاح، ادارة التسويق، الدار الجامعية، 1992، ص52.

152

15

¹⁶ J.lendrevie, j.levy, et d.lindon, Mercator, dunod, 2001,p42.

- **الجنس:** تتباين احتياجات المرأة وتختلف عن احتياجات الرجل فلكل منها حاجات خاصة به تتناسب مع جنسه.
 - **المهنة:** للوظيفة الممارسة تأثيرا ملحوظا على سلوكيات الأفراد، إذ نجد بأن الطبيب تكون له حاجات غير التي تكون للمهندس العماري أو الفلاح.

- **الوضعية الاقتصادية:** الحالة الاقتصادية للفرد تحدد ماذا بإمكانه أن يشتري. هذه الوضعية تتأثر بدخله (الذي يتحدد بالمستوى Le niveau، الانتظام La régularité، والدورية La périodicité)، بممتلكاته (سيولتها)، بقدرته على الاستدانة، وموقفه تجاه الادخار والاقتراض. لذا فإن منتجي المنتجات الفخمة (الراقية) يولون الاهتمام للتطورات المعيشية وكذا للادخار والاقتراض، فإذا دلت المؤشرات الاقتصادية أن هناك إلحاق للضرر على القدرة الشرائية فيمكنهم إعادة النظر بالنسبة لمنتجاتهم وأسعارها¹⁷.

- **الشخصية:** هي مجموع الخصائص التي تميز الفرد عن غيره، حيث أن هذه الخصائص لها تأثير على سلوكيات وتصرفات الفرد التي يقوم بها خلال مراحل حياته المختلفة.

- **مفهوم الذات:** هو التصور الذهني والنفسي الذي يكونه الفرد عن نفسه أو يتخيل أن الآخرين يكونونه عنه¹⁸.
 - **القيم:** القيمة هي اعتقاد أساسي له أثر على الطريقة التي يجب أن تتصرف بها بغية تحقيق الأهداف التي نراها مهمة¹⁹.
 - **أسلوب الحياة:** أسلوب حياة الفرد هو مخطط حياة يعبر عنه بنشاطاته ومراكز اهتماماته وآرائه، فهو يوضح صورة الفرد في مواجهة مع محيطه²⁰.

3.2.I العوامل الاجتماعية

- **الأسرة:** تلعب الأسرة دورا مهما في بناء القرارات الخاصة بالفرد، حيث أن الكثير من العادات وخاصة الاستهلاكية يقوم بها الفرد بالنظر إلى تصرفات أسرته. وتنبع أهمية الأسرة كونها تفرض على أفرادها تكرارية الاتصال مع بعضهم البعض الأمر الذي قد يؤدي إلى تكوين مواقف أو قيم سلوكية متشابهة نسبيا لدى أفرادها تتفق مع الأنماط الحياتية لها²¹.

- **الجماعات المرجعية:** هي المجموعة التي يحاول الفرد الانتماء إليها في سلوكه وتصرفاته بحيث تصبح هذه المجموعة معيارا لتصرفاته ومرجعا له في سلوكه²².

- **قادة الرأي:** قائد الرأي هو أي شخص له تأثير مباشر وقوي على مواقف واتجاهات وسلوكيات المستهلكين

¹⁷ Kotler & Dubois, marketing management, 11^e édition, Pearson education, p214.

¹⁸ عنابي بن عيسى، سلوك المستهلك، عوامل التأثير النفسية، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، 2003، ص 179.

¹⁹ Alain d'astous, naoufeldaghfous, pierre balloffet, christèle boulaire, comportement du consommateur, 2^e édition chenelière education, 2006, p55.

²⁰ Philip kotler, kevin keller, delphine manceau, marketing management, 12^e édition, pearson international édition, 2006, p 183.

²¹ محمد ابراهيم عبيدات، سلوك المستهلك، مدخل استراتيجي، الطبعة الرابعة، دار وائل للنشر، 2004، ص 324.

²² أيمن علي عمر، مرجع سابق، ص 31.

نتيجة خبرته السابقة وشعبيته الكبيرة في المجتمع.

- **الأدوار والمراكز:** ينتمي الفرد إلى العديد من الجماعات داخل مجتمعه الذي يعيش فيه مثل أسرته، النوادي الاجتماعية، النقابات المهنية، ومنظمات الأعمال وغيرها من المؤسسات والتنظيمات الأخرى. ويشار إلى وضعية ومكانة الفرد داخل كل جماعة من هذه الجماعات بالأدوار والمراكز التي يشغلها فيها، وما يهمننا عند الحديث عن ذلك العامل هو أن الأفراد غالباً ما يقوموا باختيار المنتجات التي تعكس مراكزهم ومكانتهم التي يحتلون بها داخل مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، الأمر الذي يفرض على رجال التسويق ضرورة معرفة تلك الأدوار والمراكز الخاصة بالمستهلكين في القطاعات السوقية المستهدفة المزمع التعامل معها وتسويق منتجاتهم فيها.²³

4.2.I. العوامل الثقافية

- **الثقافة:** تعرف الثقافة على أنها تلك المجموعة من القيم (ذات الطابع المادي والمعنوي)، والأفكار والمواقف والرموز التي يراها الفرد ثقافة ما نحو مختلف نواحي حياتهم والتي يتم تطويرها وإتباعها بواسطة أفراد هذا المجتمع والتي تشكل أنماطهم السلوكية والاستهلاكية والتي تميزهم عن أفراد تابعين لثقافات أخرى أصلية أو فرعية.²⁴

- **الثقافة الجزئية:** هي تلك الثقافات التي دخلت و تعايشت مع ثقافة المجتمع الأصلية لأسباب منها الهجرة أو العمل المؤقت، و التي يكون لأفرادها قيم، معتقدات و أنماط سلوكية تميزهم نسبياً عن أفراد الثقافة الأصلية.²⁵

- **الطبقة الاجتماعية:** هي عبارة عن تقسيم يتصف بالدوام النسبي لمجموعة من الأقسام المتجانسة والتي ينتمي إليها الأفراد أو الأسر بحيث يقتسمون معاً مجموعة من القيم والأنماط المعيشية واهتمامات وسلوكيات متشابهة إلى حد بعيد.²⁶

5.2.I. العوامل الاقتصادية

- **دخل المستهلك:** فكما زاد دخل المستهلك كلما تطور سلوكه الاستهلاكي وزاد تطلعه إلى اقتناء منتجات إضافية ويحدث العكس في حالة انخفاض الدخل.

- **القدرة الشرائية للمستهلك:** القدرة الشرائية للمستهلك هي التي توجه سلوكه الشرائي والاستهلاكي، فكما ارتفعت القدرة الشرائية كلما اتجه المستهلك إلى إشباع الحاجات الكمية بالإضافة إلى الحاجات الأساسية، ولكن إذا انخفضت القدرة الشرائية فيتجه المستهلك إلى إشباع حاجاته الضرورية فحسب.

- **الاستدانة:** استدانة العائلات عنصر لا يمكن إهماله، لأنه يؤثر مباشرة على الاستهلاك، خاصة لما يكون مرتبطاً بالقرض للاستهلاك، ويقلص من المداخيل التقديرية خلال فترة الاسترجاع. التوازن المالي للعائلات يعبر عنه بالمعادلة التالية:

²³ محمد عبد العظيم أبو النجا، مرجع سابق، ص 206.

²⁴ محمد عبيدات، مرجع سابق، ص 312.

²⁵ نفسه، ص 325.

²⁶ اسماعيل محمد السيد، عبد السلام أبو قحف، محمد أحمد حسان، التسويق، الدار الجامعية، الاسكندرية، ص 133.

دخل + قرض = استهلاك + استثمارات + توظيفات مالية + تسديد قروض.

تحليل توزيع ديون العائلات، من طرف القروض الاستهلاكية والقروض العقارية، تطور معدلات الاستدانة ومقارنتها مع معدلات دول أخرى يمكن رجل التسويق من استخلاص استنتاجات ول الطلب المستقبلي وحول القرارات التي سوف تتخذ.²⁷

3.1. اتخاذ القرار الشرائي

بعد تفاعل العوامل المذكورة آفا يتوصل المستهلك إلى اتخاذ القرار بشراء منتج معين أو الامتناع عن الشراء. وعادة يتدخل عدة أطراف في العملية الشرائية والاستهلاكية، حيث نجد المبادر وهو صاحب الفكرة، وهو من يقوم بعملية الاقتراح نتيجة احساسه بالحاجة، المؤثر وهو الذي يؤثر برأيه على عملية الشراء، أما المقرر فهو الذي يتخذ قرار الشراء، المشتري وهو من يقوم بعملية الشراء الفعلي، المستعمل وهو من يستهلك المنتج، والمقيم هو من يصدر الحكم على نجاح أو فشل المنتج.

وهناك مجموعة من المراحل يتبعها المستهلك عند اتخاذه لقرار الشراء نوجزها فيما يلي:

1.3.1. التعرف على المشكلة: هي أول خطوة في عملية اتخاذ القرار وفيها يحس المستهلك بوجود مشكلة تتطلب الحل، قد تكون هذه المشكلة داخلية كالشعور بالجوع والعطش وقد تكون خارجية كتأثر المستهلك بإشهار رأه في وسيلة من وسائل الاعلام.

2.3.1. جمع المعلومات: بعد تحديد المشكلة تأتي مرحلة جمع المعلومات اللازمة لحل هذه المشكلة، وقد يعتمد المستهلك في جمعه للمعلومات على المصادر الداخلية، أي مراجعة المعلومات المخزنة بذاكرته الشخصية نتيجة خبراته وتجاربه السابقة والمرتبطة بالمشاكل الاستهلاكية المشابهة لمشكلته الحالية، وقد يعتمد على المصادر الخارجية والتي قد تكون مصادر رسمية²⁸ وتشمل المصادر العامة التي تقوم بنشر المعلومات حول السلع والخدمات والتي تساعد المستهلك في عملية اتخاذ القرار الشرائي وهذه المصادر هي:

- **مصادر تجارية:** تنشرها مؤسسات الأعمال التجارية بوسائل متعددة مثل الاعلانات التجارية، مندوبي المبيعات، والنشرات والكتيبات التجارية.
 - **مصادر حكومية مختصة:** تنشر معلومات دورية لتزويد المستهلك بالمعلومات المتعلقة ببعض السلع والخدمات.
 - **مصادر مستقلة:** وتشمل الجمعيات العلمية وهيئات حماية المستهلك غير الهادفة للربح وإنما المحافظة على الصحة العامة والبيئة وخدمة للعلم والانسانية، تقوم هذه الهيئات بنشر المعلومات بهدف التوعية والحماية والتعليم.
- وقد تكون المصادر غير رسمية وتشمل أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء والجيران، وتحتل أهمية خاصة لدى المستهلك لإدراكه بأنها توفر له معلومات صادقة.

²⁷ Yves chirouze, op.cit, p 258.

²⁸ كاسر نصر المنصور، مرجع سابق، ص 80.

3.3.I. تقييم البدائل: بعد أن يجمع المستهلك المعلومات المهمة بالنسبة له تأتي مرحلة التقييم والمفاضلة بين البدائل المتاحة ليتم في الأخير الوصول إلى المنتج الأكثر ملاءمة لحاجة المستهلك.

4.3.I. اتخاذ القرار: النتيجة التي توصل إليها المستهلك من عملية التقييم والمفاضلة تسمح له باتخاذ قرار شراء منتج معين والذي يحس بأنه قادر على إشباع حاجته بشكل جيد.

5.3.I. إحساس ما بعد الشراء: بعد شراء المنتج وتجربته يتمكن المستهلك من إصدار حكم حوله، فقد يشعر المستهلك بالرضا إذا توافقت النتيجة المحصل عليها مع تطلعات المستهلك، وبالتالي يكون قد حقق مستوى عالي من الإشباع، وقد يشعر المستهلك بعدم الرضا إذا فاقت تطلعات المستهلك النتيجة المحصل عليها.

II. الضوابط الشرعية لسلوك المستهلك المسلم

لقد أولى الإسلام الإنسان (المستهلك) أهمية بالغة وفضله على باقي المخلوقات ووضع له قواعد تحكم معاملاته وتحدد تصرفاته، وبما أن الله جعل للإنسان ولاية في الأرض على ماله حيث جاء في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"²⁹، فعلى المسلم أن يحسن التصرف ويرعى الأمانة التي أوثمن عليها حتى يحقق مصلحته ويشبع حاجاته وحاجات من يعول بما يرضي الخالق عز وجل.

1.II. ماهية الاستهلاك في الاسلام

1.1.II. تعريف الاستهلاك في الاسلام

- الاستهلاك هو الإتلاف فيما ينفع، أو هو زوال المنافع التي وجد الشيء من أجل تحقيقها، وإن بقيت عينه قائمة، فالاستهلاك في الاصطلاح الشرعي إذا هو عبارة عن استخدام السلع والخدمات، فيما يحقق المنفعة للفرد، مع الالتزام بضوابط الشريعة³⁰.

فالاستهلاك في الاسلام هو كل التصرفات التي يقوم بها المستهلك المسلم للحصول على السلع والخدمات المباحة والطيبة والتي يمكنها إشباع حاجات ورغبات الأفراد والتي تمكنهم من طاعة الله عز وجل.

2.1.II. أهمية الاستهلاك في الاسلام

تبرز أهمية الاستهلاك في الاسلام في ما يلي³¹:

- **الاستهلاك تعود فطري:** ينظر الاسلام للاستهلاك على أنه تعود فطري بالنسبة للإنسان، فهو ضروري له من أجل عيشه وبقائه حيا، حيث أن بقاء الانسان على قيد الحياة ليعمر الأرض ويكون خليفة فيها ويعبد الله لا

²⁹ سورة النساء، الآية 29.

³⁰ نجاح ميدني، آليات حماية المستهلك في الاقتصاد الاسلامي، مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الاسلامية، 2007-2008، ص 59.

³¹ عبد الحميد بوخاري ومحمد زرقون، دور الاقتصاد الاسلامي في ترشيد السلوك الاستهلاكي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 12، 2011، ص 79-80، بتصرف.

يمكن أن يكون إلا بالاستهلاك.

- **الاستهلاك عبادة وطاعة من الطاعات:** يعد الاستهلاك نوعاً من أنواع الطاعات في الإسلام، إذا قصد به المسلم وجه الله تعالى، ويكون هذا في حالة تحري المسلم الكسب الحلال والتمتع بالطيب من الرزق والابتعاد عن كل ما هو محرم وبهذا يكون هدفه من الاستهلاك هو التقوى وعبادة الله تعالى وحده والسعي إلى العمل المثمر لصالحه ولصالح مجتمعه المسلم كافة.

يضاف إلى ذلك أن عملية الاستهلاك نفسها طاعة من الطاعات؛ إذا كانت تعبر عن الانصياع لأمر الله تعالى بالأكل والشرب والتمتع بهذه الحياة، قال سبحانه مخاطباً آدم عليه السلام وحواء: " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ " ³².

وجاء في آية أخرى قوله سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " ³³. يعلق أحد الباحثين على هذه الآية فيقول: فالأكل - أي الاستهلاك - المقترن بالشكر شرط لتحقيق العبادة، لذلك فالاستهلاك والاستفادة والانتفاع بما خلق الله أمر طيب في الإسلام طالما أنه لا يقوم على إدخال الضرر بالنفس أو الإضرار بالآخرين.

- **الاستهلاك في الإسلام ثوابه في الدنيا والآخرة:** يحث الإسلام الإنسان على تناول الطيبات من الرزق بهدف تحقيق الغاية من خلقه ووجوده، ويثاب على هذا الاستهلاك، إضافة إلى ما يتحقق له من متعة ولذة و حماية أي أن المسلم في هذه الحالة، قد جمعت له منفعتان: منفعة آتية وهي التمتع بالاستهلاك في الدنيا، ومنفعة آجلة وهي الثواب الذي ينتظره المستهلك في الآخرة. ويترب على ذلك أن الإهمال في الاستهلاك أمر مذموم في الإسلام، وإذا قصر الفرد مع توافر المقدرة فهو ملوم.

- **الاستهلاك في الإسلام وسيلة لا غاية:** الاستهلاك في المجتمعات الغربية هو الغاية النهائية من حياة الإنسان، وفي إطار ذلك فإن الفرد يستهلك ما شاء بهدف المتعة الدنيوية، بينما الإنسان المسلم وإن استمتع من استهلاكه، إلا أن الاستهلاك يبقى وسيلة وليس هدفاً نهائياً في حد ذاته. فالمسلم يستهلك ليعيش وهو يعيش ليعمر الأرض ويعبد الله ويسعى في نيل الثواب.

2.II. مكونات سلوك المستهلك المسلم

يتكون سلوك المستهلك المسلم من أربعة عناصر أساسية نذكرها فيما يلي:

1- **الرشد الاقتصادي:** إن الرشد في الإسلام حقيقة واقعة، إذ أن المستهلك المسلم رشيد، يؤمن بالله ورسوله ويعيش وفق تعليمات القرآن الكريم والسنة النبوية فهو عقلائي يتدبر أموره ويتصرف على نحو يرضي الله تعالى. ويأمر الله تعالى في كتابه الكريم المسلمين على الالتزام والتمسك بالشد في عدة آيات حيث يقول عز وجل في

³² سورة البقرة، الآية 35.

³³ سورة البقرة، الآية 172.

سورة البقرة: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"³⁴.

وفي هذه الآية يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قريب من عباده وأنه يجيب دعوتهم فليطيعوه فيما أمرهم به لعلهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم.

ويقول أيضا جل جلاله في سورة الجن: "وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا"³⁵. وهذا دليل على ارتباط الاسلام بالرشد، إلا أن المجتمع الاسلامي لا يخلو من القصر اليتامى الذين ليست لهم القدرة على تدبر أمور مالهم لعدم رشدهم ولها ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم وأوصى بتدبر أمورهم حتى يرشدوا في قوله تعالى: "وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا"³⁶.

وبالاضافة إلى اليتامى نجد أيضا فئة السفهاء الذين لا يمكنهم التمييز بين الخطأ والصواب لذا فقد نهى الله تعالى عن تركهم ليديروا أموالهم بأنفسهم ضمانا للصالح العام للمجتمع الاسلامي فقال عز وجل: "وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا"³⁷.

فرشد المسلم لا يعني بخله على نفسه وعلى أهله ولا حرمانه لنفسه من بعض ضروريات العيش، ولا الإنفاق بسخاء على أمور غير مهمة بل إن الرشد هو التوسط والإعتدال في التصرف، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم ولكن بإسناد ضعيف: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع"³⁸.

وهذا يمثل دعوة لعدم الإسراف في الأكل أي لا يجب على المسلم أن يأكل وهو غير جائع وبالتالي لا يجب عليه الإنفاق والتبذير من غير حاجة، وإذا جاع فليأكل ولا يسرف في الأكل ولا يشبع شبعاً مضراً. باعتبار أن الاستهلاك في الإسلام وسيلة لبلوغ غاية أسمى وهي إرضاء الله عز وجل فلا بد للمستهلك المسلم من تحري الرشد في استهلاكه ليشبع حاجاته وحاجات من يعول من جهة، ويتمكن من إرضاء خالقه من جهة ثانية.

إن هناك ضوابط وتوجيهات وضعها الإسلام لتحديد المسار الرشيد بالنسبة للاستهلاك، متى ما التزم المستهلك بهذه التعليمات والتوجيهات اعتبر رشيداً ومنها تحريم حياة الترف، وتحريم الإسراف والتبذير، والدعوة إلى الاعتدال في الإنفاق، وتحريم استهلاك السلع والخدمات الضارة.³⁹

³⁴ سورة البقرة، الآية 186.

³⁵ سورة الجن، الآية 14.

³⁶ سورة النساء، الآية 06.

³⁷ سورة النساء، الآية 05.

³⁸ <http://www.binbaz.org.sa/node/38>

³⁹ عبد الحميد بوخاري ومحمد زرقون، مرجع سابق، ص 88.

2- البعد الزمني لسلوك المستهلك: فالمستهلك في الإسلام لا يقوم بالاستهلاك فقط لتلبية حاجة دنيوية، بل إنه يقوم بكل الأفعال والتصرفات من أجل إشباع حاجاته في الدنيا وكسب ثواب للآخرة وبهذا نجد أن نتائج سلوك المستهلك المسلم تمتد إلى الحياة الآخرة، فالأجر والثواب الذي يكسبه المستهلك المسلم جراء قيامه بالاستهلاك لا ينتفع به في الدنيا وإنما يستفيد منه في الآخرة.

قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا"⁴⁰، وهذا دليل على أن أي سلوك يقوم به المسلم يؤجر عليه في الدنيا وفي الآخرة.

ويدعو الله تعالى عباده بأن يكون وراء سلوكهم هدف أسمى من المنفعة الدنيوية وهو التطلع إلى الآخرة ولكن دون الإجحاف في حقوقهم الدنيوية بطبيعة الحال في قوله تعالى:

"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"⁴¹.

إن الإسلام دين حق وأجر وثواب، فالمستهلك المسلم متى ما قام بإنفاق ولو جزء قليل من ماله فسوف يحصل على منفعتين: الأولى هي تلبية حاجاته في الدنيا والثانية هي الثواب الذي ينتظره في الآخرة، وحتى إن لم يحصل المستهلك على المنفعة الدنيوية (مثلا في حالة عدم إنفاقه على نفسه والتصدق على الفقراء أو اليتامى) فإنه يحصل على منافع مضاعفة أي أجر وثواب في الآخرة.

3- الحرية الموحمة: كما سبقت الإشارة فإن المستهلك المسلم جعل الله له المال كوديعة عليه أن يراها في حياته وأن يحسن استعمالها في ما يرضي الله، وعلى هذا فإن المستهلك المسلم ليست له الحرية التامة لاستعمال هذا المال، وعليه أن يأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الأمور قبل استعماله لماله أهمها التوفيق بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة، وأن يستعمله في أمور مشروعة لا تضر بالغير أو تؤذيهم. وفي هذا جاء قوله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْطِفُوا بِالْمَالِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَبْغُوا فِيهَا بِغْيًا لِّلْمُتَّقِينَ"⁴².

كما قال الله تعالى ناهيا عن الإفساد في الأرض: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"⁴³.

فالمستهلك المسلم مطالب بأن يراعي مصالح من حوله ولا يؤذيهم باستهلاكه، مثلا أن لا يرمي مخلفات استهلاكه

⁴⁰ سورة النساء، الآية 77.

⁴¹ سورة القصص، الآية 77.

⁴² سورة القصص، الآية 83.

⁴³ سورة القصص، الآية 77.

أمام أبواب الجيران ولا يستعمل أدوات كهرومنزلية مثلا قد تصدر ضجة تزجج من حوله.

4- المنفعة المادية والروحية: إن الإسلام لا يثبط الهمم في السعي والكسب وتحقيق مستويات معيشية جيدة لأفراد المجتمع، بل إن ذلك يعد فضيلة أو صفة من صفات المؤمنين إلا أنه يشترط أن يكون تحقيق ذلك متسقا مع المفاهيم والتعاليم الإسلامية⁴⁴.

فكما سبق وأشرنا فإن منفعة المستهلك المسلم لا تكون مادية فحسب وإنما تكون روحية أيضا، فالمستهلك من خلال إنفاقه قد لا يحقق أي منفعة مادية لنفسه، ولكن تكون منفعته الروحية أعظم بكثير مثلا في حالة الإنفاق على الغير من المحتاجين.

وفي هذا يقول الله تعالى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَذَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"⁴⁵.

وقوله أيضا: "إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ"⁴⁶.

حيث أن المسلم إذا أفق على غيره (تصدق) فإن هذا بمثابة قرض أقرضه الله تعالى وفي الآخرة يرده إليه مضاعفا.

3.II. ضوابط سلوك المستهلك في الاسلام

لقد سبق وأن ذكرنا في الجزء الأول من هذه الورقة البحثية مجموعة من العوامل التي تؤثر على سلوك المستهلك وقراراته الشرائية، وفي هذه النقطة سوف نأتي على ذكر أهم العوامل التي تضبط سلوك المستهلك المسلم وتحدد توجهاته وقراراته.

1.3.II. شراء المنتجات الحلال: إن تصرف المستهلك في المال الذي استودعه الله إياه مقيد بأوامر الله تعالى

ونواهيته، وقد أمرنا الله تعالى باستهلاك الحلال والابتعاد عن المحرمات، ولو يتمتع المستهلك في حكمة الله تعالى لوجد أن المحرم من المنتجات يكاد يعد على الأصابع بينما ما تبقى فكله حلال ومباح للاستهلاك، والمستهلك المسلم يولي أهمية كبيرة لشراء المنتجات الحلال والابتعاد عن الحرام لأنه منهي عنه، وقد جاء قول الله تعالى في هذا الشأن: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"⁴⁷.

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ"⁴⁸.

2.3.II. الابتعاد عن الإسراف والتبذير: فالإسراف والتبذير هما أساس فساد المال، وعلى المستهلك المسلم أن

⁴⁴ زيد بن محمد الرماني، الرؤية الإسلامية لسلوك المستهلك، الطبعة الأولى، دار طويق للنشر والتوزيع، 1422هـ-2001م، ص 51.

⁴⁵ سورة البقرة، الآية 265.

⁴⁶ سورة الحديد، الآية 18.

⁴⁷ سورة البقرة، الآية 172.

⁴⁸ سورة البقرة، الآية 168.

يقنع بالحد المعقول من الإشباع المادي لحاجاته وأن يتطلع للإشباع الروحي الذي هو أسمى، فالمستهلك المسلم يجب أن يلتزم بالابتعاد عن شراء منتجات إضافية غير ضرورية، وأن يكتفي بالحد الأقصى من المنتجات للحفاظ على ماله من الضياع، قال الله تعالى: " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " ⁴⁹.

وقال تعالى: " إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا " ⁵⁰.

II.3.3.3. تجنب البخل والتقتير: فبعكس الإسراف نجد التقتير، وهو الآخر منهي عنه في الإسلام، إذ لا بد على المستهلك المسلم الابتعاد عن البخل حيث أن الله أتاح للمسلم المال لا ليكنزه وهو بحاجة ماسة إلى الطعام والشراب واللباس وغيرها من الأمور الضرورية للحياة، بل أعطاه إياه ليرى نعمته ظاهرة على عبده في حدود المعقول بطبيعة الحال، وبينها الله عز وجل عن البخل في قوله تعالى: " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " ⁵¹.

وقوله تعالى: " وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " ⁵².

II.4.3.4. الحرص على تحقيق التكافل الاجتماعي: المستهلك المسلم يجب أن يكون حريصا على تحقيق التكافل والتضامن الاجتماعي عن طريق مختلف أشكال التآزر كمساعدة المحتاجين والمساكين أو تقديم الزكاة أو غيرها من وسائل التعاون حيث قال الله تعالى في كتابه: " لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " ⁵³، وقوله سبحانه: " وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ " ⁵⁴.

II.5.3.5. الإيثار وترك الأنانية: فمن صفات المستهلك المسلم إيثار الغير عن النفس والابتعاد عن الأنانية لأن الأنانية تعتبر وجودا لنعم الله تعالى والإسلام يدعو لإقامة مجتمع متكافل بعيد عن الأنانية والشح، وخير مثال في هذه الحالة هو عن الحضرة عليه السلام لما طلب الطعام من أهل القرية ولم يضيفوه هو وموسى عليه السلام ورغم هذا قام ببناء الجدار مثلما ورد في قوله تعالى: " فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ

⁴⁹ سورة الأعراف، الآية 31.

⁵⁰ سورة الإسراء، الآية 27.

⁵¹ سورة التغابن، الآية 16.

⁵² سورة آل عمران، الآية 180.

⁵³ سورة البقرة، الآية 177.

⁵⁴ سورة الذاريات، الآية 19.

يُضَيِّفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَأَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا"⁵⁵. كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"⁵⁶.

II.6.3. الدعوة إلى الادخار: فالمستهلك المسلم لا يستهلك كل ماله دفعة واحدة لأنه بهذا الفعل دخل مجال التبذير، بل يقوم بادخار جزء من ماله لوقت الشدة حتى لا يحتاج المساعدة كما أن المستهلك المسلم مطالب بالاستثمار حتى لا يتآكل رأسه جراء دفع الزكاة منه، وحتى لا يبقى ماله راكدا وبالتالي يشارك في التنمية الاقتصادية. وتجدر الإشارة إلى أن هناك مناطق للاستهلاك يتحرك داخلها المستهلك المسلم⁵⁷:

- **منطقة القوام (الوسطية والاعتدال):** منطقة مباحة وهي وسط بين الإسراف والتقتير، ووسط بين الزينة والورع، وأكثر الناس لا يأخذ بها إذ هم يميلون غالبا إلى الزينة ويتجاوز بعضهم إلى الترف والسرف والتبذير.

- **منطقة الزينة (الطيبات وإظهار الغنى):** منطقة مباحة فيها التحدث بالنعم والرفاهة على أن لا يخرج المسلم إلى منطقة الترف المنهي عنه، لقوله تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدث"⁵⁸.

- **منطقة الورع (التقشف والزهد):** منطقة مباحة وهي منطقة جيدة إلا أن الذين يستطيعون المكث فيها قليلون وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام.

- **منطقة الإسراف (التبذير والترف):** هي منطقة محرمة، والتبذير أشد من الإسراف فهو المغالاة في تجاوز الحد والتوسع في الانفاق على المحرمات والمعاصي والشهوات، كما أن الترف أشد من التبذير، فهو التوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها وبالتالي إضاعة المال.

- **منطقة التقتير (البخل والشح):** هي منطقة محرمة فالبخيل عدو الله وعدو نفسه وعدو لكل ما ينفع الغير وقد يؤدي به البخل إلى قتل نفسه شيئا فشيئا بجرمانها من أبسط الضروريات.

- الخاتمة:

لقد حظي الاستهلاك بأهمية بالغة في الإسلام نظرا لارتباطه الوثيق ببقاء الانسان على قيد الحياة وإمكانية تعميره للأرض التي جعله الله مستخلفا فيها ومن أجل عبادة الله عز وجل. ولهذا كان المستهلك هو الركيزة الأساسية في النظام الاقتصادي الاسلامي وكانت له الأولوية في الدراسة من

⁵⁵ سورة الكهف، الآية 77.

⁵⁶ سورة الحشر، الآية 09.

⁵⁷ زيد بن محمد الرماني، مرجع سابق، ص 41-43، بتصرف.

⁵⁸ سورة الضحى، الآية 11.

قبل الكثير من الباحثين، وقد عمل الإسلام على توجيه استهلاك المستهلك المسلم بطريقة تحقق له أقصى منفعة في الدنيا والآخرة، جامعا بين القيم والأخلاق والمنفعة على حد سواء.

إن سلوك المستهلك المسلم مقيد بمجموعة من الضوابط الشرعية التي توجهه بطريقة ترضي العبد والخالق، فمثلا يجب على المستهلك المسلم الإبتعاد عن الإسراف والتبذير في استهلاكه ومحاوله إلتزام الوسطية والإعتدال حتى لا يجرم نفسه من بعض الضروريات ولا ينفق عنها أكثر مما تحتاجه، بالاضافة إلى إعطاء الفقراء والمساكين والمحتاجين نصيبهم المفروض من الزكاة، ولهذا يدعو الإسلام أيضا إلى ضرورة الإدخار مع الإستثمار حتى لا يتآكل المال بآزكاة المدفوعة كما حثه الدين الاسلامي أيضا على الإلتزام باستهلاك الحلال من المنتجات والابتعاد عن كل ما حرم الله منها.

التوصيات المقترحة:

- ضرورة الإلتزام بتعاليم الدين الاسلامي في ما يخص الشراء الاستهلاك.
- السعي للابتعاد عن كل ما هو حرام في المنتجات الاستهلاكية ولو كان جد مرغوب.
- محاولة تعويد النفس على الإلتزام بالوسطية في الاستهلاك والابتعاد عن الإسراف والتبذير.
- التعود على الادخار لوقت الحاجة حتى لا يقع المستهلك في مأزق الحاجة.
- محاولة استثمار ولو جزء قليل من المال حرصا على تميته.
- التآزر مع الفئات المحرومة من المجتمع وإكرامهم والتصدق عليهم لتحقيق غاية التكافل الاجتماعي.

الوقف ودوره في دعم مؤسسات التعليم العالي: وقف جامعة الملك سعود نموذجاً

الدكتور ثامر النويران - الاردن

الدكتور علي هلال البقوم - الاردن

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبة أجمعين، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين. أما بعد.

تعاني العديد من مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي من عجز مالي كبير في ميزانياتها نتيجة عدم توفر مصدر تمويل دائم لتلك المؤسسات، وقد اثر هذا العجز بشكل واضح في حجم ونوعية الخدمات المقدمة من قبل تلك المؤسسات، وفي سبيل مواجهة تلك المؤسسات التعليمية لهذه المشكلة فإنها تعتمد على الدعم الحكومي أو الاقتراض الخارجي أو رفع سعر الخدمات المقدمة لطالبي العلم، الأمر الذي اثر بشكل سلبي على التعليم العالي في الوطن العربي.

ولقد جاءت هذه الدراسة لبيان دور مؤسسة الوقف في حل مشكلة تمويل مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي، من خلال الإشارة لتجربة جامعة الملك سعود في هذا المجال.

وقد قسمت الدراسة لثلاث مباحث وعلى الشكل التالي:-

المبحث الأول: مقدمة عامة عن الأوقاف.

المبحث الثاني: دور الوقف العلمي في دعم مؤسسات التعليم.

المبحث الثالث: تجربة جامعة الملك سعود في إنشاء أوقاف علمية.

النتائج والتوصيات

كلمات مفتاحية: الوقف، الوقف العلمي، جامعة الملك سعود

Summary

All praise is due to Allah and peace and may blessing be upon His last Prophet, his family, and his companions. Many of the institutions of higher education in the Arab World suffer from a large financial deficit in their budgets as a result of the lack of permanent funding sources for these institutions. As a result, this deficit has affected the scope and quality of the services provided by these institutions. In order to face financial problems, the majority of the institutions of higher education depended on government support, external borrowing, or raising the prices of a variety of services provided for students. Such solutions proved to have negative impact on the field of higher education in the Arab World.

This study investigates the role of endowments in solving the financial problems of the

institutions of higher education in the Arab world by referring to the experience of King Saud University in this field.

The study was divided into three sections as follows: -

Section I: General introduction to endowments.

Section II: The role of research endowment in supporting educational institutions.

Section III: King Saud University's experience in the establishment of research endowments.

Section IV: Findings and recommendations.

Keywords: Endowment, Research Endowment, King Saud University.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ليوم الدين، أما بعد. تعاني العديد من مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي من عجز مالي كبير في ميزانياتها نتيجة عدم توفر مصدر تمويل دائم لتلك المؤسسات، وقد اثر هذا العجز بشكل واضح في حجم ونوعية الخدمات المقدمة من قبل تلك المؤسسات، وفي سبيل مواجهة تلك المؤسسات التعليمية لهذه المشكلة فإنها تعتمد على الدعم الحكومي أو الاقتراض الخارجي أو رفع سعر الخدمات المقدمة لطالبي العلم، الأمر الذي اثر بشكل سلبي على التعليم العالي في الوطن العربي.

وفي سبيل مواجه مشكلة تمويل التعليم العالي، تطرح العديد من الحلول لهذه المشكلة، والتي أخذت حيزاً كبيراً من النقاش العلمي، وفي هذا المجال فقد جاءت هذه الدراسة لبيان دور مؤسسة الوقف في حل مشكلة تمويل مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي، مع الإشارة لتجربة جامعة الملك سعود في هذا المجال، فالوقف في التشريع الإسلامي معروف منذ القرون الأولى، وقد اهتم به العلماء اهتماماً كبيراً لما له من آثار متعددة على المجتمع والفرد، حيث أسهمت الأوقاف الإسلامية في تنمية الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وإثراء المرافق المختلفة للدولة الإسلامية، من خلال إقامة الأوقاف المتنوعة كأوقاف المساجد والكتاتيب والمدارس والمعاهد والجامعات والمراكز الإسلامية، ودور العلم، والمستشفيات، وغيرها من الأوقاف، والتي تخرج منها علماء في شتى فروع المعرفة البشرية، مما ساهم في التقدم العلمي والفكري والثقافي للدولة الإسلامية، ويمكن القول أن الوقف العلمي هو المصدر الرئيسي لدعم وتمويل المشاريع التعليمية والإنفاق على العلماء ومراكز العلم في المجتمعات الإسلامية في سابق العصور، حتى قيل أن الوقف صانع الحضارة.

وهذا ما تنبّهت له بعض الجامعات الغربية حيث أنشأت العديد من الأوقاف العلمية للإنفاق على تلك المؤسسات ودعم البحث العلمي ويمكن الإشارة هنا إلى أن أوقاف جامعة هارفرد مثلاً تبلغ حوالي 35 مليار

دولار، تغطي احتياجات الجامعة المالية.

أهمية الدراسة

أن أهمية هذا الدراسة تنبع من أهمية الأوقاف في دعم مؤسسات التعليم والعلماء، فكما هو معلوم فإن للعلم أهمية عظيمة ودور أساسي في رقي وتقدم الشعوب على مر العصور، لذلك فقد اهتمت الدول المختلفة بالعلم والعلماء ووفرت لهم جميع المستلزمات الضرورية للقيام بواجبهم على أكمل وجه، وفي عالمنا الإسلامي فإن صعوبة الأوضاع الاقتصادية لدى الكثير من الدول الإسلامية انعكس بشكل مباشر على قيمة الدعم المقدم لمؤسسات التعليم العالي، مما اثر على حجم النتاج العلمي لتلك الدول، ولعل الواقع الذي تعيشه الدول الإسلامية خير دليل على ذلك، وفي سبيل البحث عن بدائل للدعم الحكومي لتلك المؤسسات، فإن الأوقاف على المؤسسات التعليمية تعتبر خير بديل لذلك الدعم الحكومي.

هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة لبيان الدور الذي من الممكن أن تقوم به الأوقاف الإسلامية في تمويل مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي، واعتبارها بديلاً عن الدعم الحكومي الذي يقدم حالياً لمعظم تلك المؤسسات.

مشكلة الدراسة

شعر الباحثان بوجود مشكلة تواجه الوضع المالي لمؤسسات التعليم العالي، والتي تنعكس سلباً على أداءها، بالإضافة إلى عدم قدرة بعض الطلبة المتميزين من إكمال دراستهم الجامعية، وذلك بسبب ارتفاع التكاليف المترتبة عليهم، فكان البحث عن سبيل لتوفير الدعم المالي لتلك المؤسسات، وذلك من خلال الوقف الإسلامي.

سبب اختيار الموضوع

لقد تم اختيار هذا الموضوع لعدة أسباب وهي:-

- أهمية الأوقاف في المجتمع الإسلامي عامة، وكونها احد أهم عوامل الازدهار العلمي فيه.
- أن الوقف كان احد أهم مصادر الدعم الأساسية لمعظم المؤسسات التعليمية في البلاد الإسلامية.
- حاجة الكثير من مؤسسات التعليم العالي لوسائل دعم مادي.
- حاجة المكتبة العربية لدراسات تبين دور الوقف في دعم مؤسسات التعليم العالي.

المبحث الأول: مقدمة عامة عن الأوقاف.

تعريف الوقف

أولاً: الوقف لغتياً:

عند الرجوع للمعاجم اللغوية نجد اتفاقاً بين أصحابها حول تعريف الوقف لغتياً، فالوقف أصلاً مأخوذ من المكث،

وهو مصدر وقف بمعنى الحبس والمنع، ويقال وقف الشيء وأوقفه، وجمعة وقوف، (ابن فارس، 1991، ص 135)، والوقف والحبس والتسبيل كلها بمعنى واحد، وسمي الوقف وقفاً لأن العين موقوفة، وحبساً لأن العين محبوسة، والجمع أوقاف وأقباس، (ابن منظور، 1996، ص 369).

ثانياً: الوقف اصطلاحاً:

اختلف الفقهاء في بيان معنى الوقف، وذلك لاختلافهم في بعض أحكامه، مثل لزومه وعدمه، وشروطه أيضاً، لذا فقد جاء كل تعريف ليعبر عن الوجهة التي اختارها صاحب التعريف، وقد عرفه ابن قدامة في المغني بأنة "حبس الأصل وتسبيل المنفعة"، ويدل هذا التعريف على انه في الوقف يتم حبس العين، بحيث لا يتصرف بها لا بيعاً ولا رهناً ولا هبة ولا تنتقل بالميراث، أما المنفعة فإنها تصرف لجهات الوقف على حسب شروط الواقف. (سعيد، 1999، ص 23).

أما اقتصادياً فإن الوقف يعني "تحويل جزء من الدخل والثروات إلى موارد تكافية تخصص منافعها وعوائدها لتلبية احتياجات الفئات المستفيدة من هذا الوقف" (العوشن، 2011، ص 48)

مشروعية الوقف

إن القول بصحة الوقف هو مذهب جمهور الفقهاء ومن بعدهم، لأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، يقول ابن قدامة: (وأكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم على القول بصحة الوقف)، (ابن قدامة، 1997، ص 184). وقد تعالى: بآيات من كتاب الله سبحانه وتعالى، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن كتاب الله استدلووا بالآيات التالية:-

- قوله تعالى: [وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ]⁵⁹. (أل عمران، 15).
- وقوله تعالى: [لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ]، (أل عمران، 92)
- وقوله تعالى: [وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (البقرة، 280).

أما من السنة فاستدلوا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". (مسلم، 1992، ص 886).

أركان الوقف

أن للوقف أركان معينة ومحددة لا بد من توفرها، مثله مثل سائر الالتزامات والعقود وهذه الأركان هي (شحادة، 2008):-

1- الواقف: وهو الذي بذل المال وحبسه في سبيل الله، واشترط الفقهاء فيه شروط، وهي البلوغ والعقل والرشد والحرية والملك، وان لا يكون الواقف محجوراً عليه لسفه وغفلة بحكم القاضي، وأن يكون الواقف مختاراً وألا يكون الواقف مديناً، وأن يكون الواقف غير مريض مرض الموت، وأن لا يكون الواقف مرتداً عن الإسلام.

2- الموقوف: وهو العين المحبوسة التي تجري عليها أحكام الوقف، واشترط الفقهاء أن يكون مالاً متقوماً، وان يكون قد ورد أمر بجواز وقفة، وان يكون مملوكاً للواقف حين وقفة، وان يكون مفرزاً غير شائع (عبد السلام، 2008).

3- الموقوف عليه: وهو الجهة المنتفعة من العين الموقوفة، واشترط الفقهاء أن يكون أهلاً للتملك، وان يكون معلوماً وان يكون جمحة خير وبر.

4- الصيغة: ويقصد بها لفظ الوقف، هو اللفظ الذي يدل على إرادة الوقف، أو ما يصدر من العاقد من قول أو فعل أو كتابة أو إشارة مفهومة تعبيراً عن إرادته وبيانياً لما في نفسه.

أنواع الوقف

قسم العلماء الوقف لعدد من التقسيمات وهي: مختلفة وهي (حشيش، 1435):-

- 1- الوقف الديني: وهو الوقف لأغراض العبادة بمعناها الضيق مثل وقف المساجد ودور العبادة.
- 2- الوقف الذري أو الأهلي: وهو الوقف الذي جعل خيرة وربعة ابتداءً على الواقف وذريته، كالأهل والأولاد والأحفاد وغيرهم من الأهل والأقارب أو عليهما معاً، أو على شخص معين، ثم من بعدهم على إحدى جهات الخير المختلفة، ويقصد بهذا الوقف الحفاظ على الأملاك من البيع أو سوء تصرف الورثة. (أل عبد المحسن، 1434).

3- الوقف الخيري العام: وهو الوقف الذي جعل ابتداءً على جهات البر التي لا تنقطع، وقد سمي خيرياً لاقتصار منفعته على المجالات والأهداف الخيرية، كالفقراء والمحتاجين وطلبة العلم.

4- الوقف المشترك: ويشمل هذا النوع من أنواع الوقف على الوقف الذري والوقف الخيري، بحيث يجعل نصيب للذرية ونصيب لوجه الخير الأخرى.

الحكمة من مشروعية الوقف

للقف فوائد أغراض وحكم كثيرة ومتنوعة، فهو قرينة من العبد لربه في الدرجة الأولى، كما أن الوقف ساهم مساهمة فعالة في تقدم المجتمع الإسلامي على مر العصور في مناحي متعددة، ويمكن تلخيص فوائد وحكم الوقف بما يلي:- (شافعي، 2001) ، (عبد السلام، 2008).

● فتح باب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وتحصيل المزيد من الأجر والثواب، والامتثال لأمر

الله سبحانه وتعالى بالإنفاق والتصدق في وجوه البر المختلفة.

- استمرار الخير والأجر للمؤمن حتى بعد موته وانقطاع عملة في الدنيا من خلال هذا الوقف.
- تحقيق الكثير من مصالح الأمة الإسلامية، فأموال الأوقاف فيها اثر كبير وفوائد جمة على مصالح المسلمين المختلفة، كبناء المساجد والمدارس ودور العلم.
- المساهمة في تطوير مستويات الخدمات الطبية المقدمة للمجتمع، وذلك من خلال الأوقاف المخصصة للمستشفيات والمصحات، والأبحاث العلمية المرتبطة بالمجالات الطبية.
- تعتبر الأوقاف من أهم وسائل تحقيق التكافل والترابط بين أفراد المجتمع، وذلك من خلال الأوقاف المخصصة للفقراء والمحتاجين.
- تساهم الأوقاف في تحقيق الرعاية الاجتماعية، وذلك من خلال الوقف الذي على الأقارب والأوقاف الخيرية المخصصة لرعاية الأرمال والأيتام والأشخاص ذوو الاحتياجات الخاصة.
- للوقف اثر ايجابي على خزينة الدولة، وذلك من خلال إنشاء مشاريع البنية التحتية، كالطرق والجسور وآبار المياه، كما أن هناك أوقاف كانت تخصص للدفاع عن بلاد المسلمين وسد الثغور.

دور الوقف في المجال الاقتصادي

لوقف آثار اقتصادية بارزة وواضحة في دفع عجلة التنمية الاقتصادية، وذلك من خلال إسهامه في حفظ الأصول الموقوفة من التلاشي والضياع من خلال توليد دخل مستمر يوفر حاجات المستفيدين في الحاضر والمستقبل، وذلك من خلال معالجة احد أهم محاور التنمية الاقتصادية المنشودة وهي مكافحة الفقر. (العوشن، 2011)

المبحث الثاني: دور الوقف العلمي في دعم مؤسسات التعليم.

الوقف العلمي

كما اشرنا سابقاً فان الأوقاف الإسلامية تعتبر من أسمى الأنظمة الاقتصادية التي ساهمت في بناء المجتمعات الإسلامية وتطورها على مر العصور، ولقد كانت إحدى أهم مساهمات الوقف هو ما يتعلق بمساهمته في التقدم العلمي والفكري والثقافي للمجتمعات الإسلامية، حيث أسهمت الأوقاف في نشر العلم وبناء صروح المختلفة، من خلال بناء ورعاية المساجد والكتاتيب والمدارس والمعاهد والمكتبات، والتي ساهمت في تخرج العديد من العلماء وطلبة العلم الذين اثروا البشرية بعلومهم واختراعاتهم المختلفة، ولم يقتصر الأمر على العلوم الشرعية بل تعدى ذلك لمختلف العلوم البحثية والتطبيقية والاجتماعية (العاصم، 2009)، وفي هذا المبحث سنتطرق للوقف العلمي من حيث تعريفه وأهميته وأغراضه وأهم المشاكل التي تواجه التعليم في العالم الإسلامي، بالإضافة للتعريف بأهم الأوقاف العلمية في العالم، ومن ثم تقديم مقترح حول كيفية دعم الأوقاف لمؤسسات التعليم العالي.

تعريف الوقف العلمي

لا يختلف تعريف الوقف العلمي عن الوقف بشكل عام، سواء أن ثمة الوقف توجه للأغراض التعليمية المختلفة، (شحادة، 2008)، وقد عرف بعدة تعريفات ولعل اشملها هو أن المقصود بالوقف العلمي انه يعني "الوقف المخصص للجوانب العلمية المختلفة والتي لها دور في رفق الحركة العلمية كوقف المساجد والمدارس والمكاتب والجامعات ونشر الأبحاث وأدوات التعلم المختلفة وكفالة العلماء وطلبة العلم" (راغب، 2006)، كما عرف الوقف العلمي أيضا بأنه "وقف مالي يستخدم لأغراض تحقيق تقدم علمي وتكنولوجي، ويعمل على دعم المشاريع والصناعات التي تؤدي إلى تنمية علمية واجتماعية واقتصادية في مجتمعاتنا"، (العاصم، 2009).

الأوقاف العلمية

يعتبر الوقف من المؤسسات الرائدة التي كان لها دور فعال في تنمية التعليم في المجتمعات الإسلامية سابقاً، من خلال الدعم المقدم للمساجد والمدارس والمعاهد والمكاتب، حيث رعت الأوقاف الخيرية عملية التعليم من مرحلة الدراسة الأساسية حتى مرحلة الدراسات العليا، مما ساعد في نقل المجتمع آنذاك من مجتمع بسيط إلى مجتمع مبدع في مختلف العلوم، حيث أدت تلك الأوقاف إلى مد المجتمع بما يحتاجه من الأشخاص المؤهلين الذين ساهموا في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع، وقد استخدم كل ذلك الرقي والتقدم العلمي فيما بعد كأساس رئيسية لبناء الحضارة الحديثة التي نعيشها اليوم، (عبد الغني، 2011).

ولقد شملت الأوقاف العلمية جميع الجوانب التي تخدم عملية التعليم، ومن أهم تلك الجوانب بناء المدارس والجامعات والمعاهد والمكاتب وتجهيزها، وتوفير جميع مستلزمات التعليم وكفالة المعلمين وتوفير جميع احتياجاتهم، ومن أهم تلك المرافق التي استفادة من تلك الأوقاف، (الشرجي، 2009):-

1- وقف المساجد.

كما هو معروف فان للمساجد دوراً علمياً معروفاً في نشر العلم على مر التاريخ الإسلامي، من خلال العلماء الذين كانوا يتخذون من المساجد مكاناً للتعليم ونقل المعرفة، بل أن بعض المساجد تحولت لجامعات مثل جامع قرطبة والجامع الأزهر وجامع الزيتونة، ولقد كانت الأوقاف هي التي تشكل المورد المالي الرئيسي لتلك المساجد من خلال الإنفاق على بناء المساجد وكفالة العلماء وطلبة العلم.

2- وقف المدارس.

لقد كان للأوقاف الإسلامية دوراً أساسياً في بناء المدارس والإنفاق عليها على مر التاريخ الإسلامي، سواء ما كان ملحق بالمساجد أو ما كان مستقلاً، بالإضافة للإنفاق على المعلمين فيها وتوفير احتياجات طلبة العلم المختلفة.

3- وقف المستشفيات.

لقد أوقفت أوقافاً كثيرة على المستشفيات ونشر علم الطب وتعليمية من خلال المعاهد والمدارس الطبية،

ولم تكن تلك المستشفيات مخصصة فقط لعلاج الناس، بل تعدت ذلك لتدريس علوم الطب ودعم الأبحاث العلمية المتخصصة، (أل عبد المحسن، 1434).

4- وقف المكتبات.

لقد أنشأت العديد من المكتبات الوقفية في العالم الإسلامي من خلال الأوقاف التي انشأت لهذه الغاية، وذلك إيماناً بأن العلم لا ينتشر دون وجود كتب يتعلم منها.

5- والوقف على المعلمين.

فقد خصصت أوقاف للصرف على دفع رواتب المعلمين والمدرسين وتوفير جميع مستلزماتهم، ليتفرغوا لتعليم الناس.

6- الوقف على المتعلمين

في سبيل تشجيع المتعلمين على الانخراط في التعليم فقد خصصت بعض أموال الأوقاف العلمية للصرف على المتعلمين وتوفير جميع مستلزماتهم من مأكل ومسكن وملبس، بالإضافة لتوفير الاحتياجات التدريسية من كتب وأقلام ودفاتر، وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى ذلك حيث قال "وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد الشرقية كلها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة وأدائها فراغ البال من أمر المعيشة" (أل عبد المحسن، 1434، ص 24).

أغراض الوقف العلمي

للووقف العلمي العديد من الأغراض المختلفة وهي:- (شافعي، 2001).

- إنشاء المختبرات ومراكز البحث المختلفة ودعمها.
- تجهيز الجامعات بالمعدات واللوازم المختلفة.
- دعم مؤسسات البحث العلمي.
- إقامة المكتبات العامة.
- مساعدة الطلاب للدراسة داخل البلاد وخارجها.
- تقديم المختبرات ومراكز مشروعات العلمية المختلفة والتي تعود بالنفع على المجتمع، (الشرجي، 2009).
- كفاية العلماء والمدرسين.
- التكفل بنفقات الكراسي العلمية.
- شراء الكتب ومستلزمات التعليم للطلبة.
- إقامة المختبرات ومراكز الأبحاث المتخصصة.

- بناء مساكن للمعلمين والطلاب.

- تقديم الخدمات الصحية لطلبة العلم.

- الدعم الجزئي لميزانية الجامعات، وشراء الأراضي التي تقام عليها تلك المؤسسات.

أهمية الأوقاف العلمية

تقدم الأوقاف العلمية العديد من المميزات للمؤسسات التعليمية وذلك من خلال ما يلي:- (العاصم، 2009).

- تعتبر الأوقاف العلمية مصدر تمويل ثابت ومستقر للمؤسسات التعليمية.

- تحقق الأوقاف العلمية الاكتفاء الذاتي مالياً للمؤسسات التعليمية.

- تسهم الأوقاف العلمية في تطوير التعليم العالي.

- توفر الأوقاف العلمية التمويل اللازم لإقامة المباني والمختبرات والتجهيزات العلمية لمؤسسات التعليم العالي.

- تعمق الأوقاف العلمية روح المسؤولية لدى أفراد المجتمع.

مشاكل التعليم في العالم الإسلامي

حتى يتضح لنا أهمية الوقف العلمي فأنه لا بد من التعرّيج على بعضاً من المشاكل التي يعاني منها التعليم في العالم العربي ومن أهم تلك المشاكل ما يلي:- (عابد، 1998).

1- قلة الكوادر العلمية المدربة والمؤهلة.

2- انتشار الفقر في المجتمعات الإسلامية، مما يؤدي لخروج العديد من الأطفال من المدارس نتيجة لعدم قدرة أسرهم على إعالتهم واضطرارهم للعمل بدلاً من التعلم.

3- تدنى المبالغ الموجهة للتعليم ومؤسساته في أغلب الدول الإسلامية، وذلك نتيجة للأوضاع الاقتصادية التي تعاني منها.

4- تقليص ميزانية المؤسسات التعليمية.

5- قلة عدد الكتب والأبحاث العلمية المنشورة مقارنة بدول العالم الأخرى.

6- قلة عدد المكتبات العامة في العالم الإسلامي مقارنة بعدد السكان.

7- عدم الاهتمام بالمبدعين من الطلبة والعلماء.

أن نظرة سريعة للمشاكل التي يعاني منها التعليم في العالم الإسلامي، يشير بوضوح لحجم المشكلة التي يعاني منها المسلمين، ولعل ذلك هو السبب الرئيسي في تخلف بلدان العالم الإسلامي، وبما أن العلم هو السلاح الذي تسلحت به الدول المتقدمة لتتطور وتتقدم، فأنه يمكن القول بأن الوقف على البحث العلمي يعد حلاً لجميع المشاكل التي يعاني منها التعليم في العالم الإسلامي من خلال توفيره لجميع الاحتياجات والمستلزمات لطلبة العلم والعلماء.

الوقف العلمي في الغرب

تعد الأوقاف العلمية في الغرب من أضخم الأوقاف على مستوى العالم، فمثلاً يبلغ حجم الأوقاف العلمية في أمريكا

وحدها حوالي 135 مليار دولار، أما في بريطانيا فقيمة الوقف العلمي في عشر جامعات بريطانية حوالي 45 مليار دولار، وفي الجامعات الكندية حوالي 7 مليار دولار، أما جامعة كيوتو اليابانية فيبلغ حجم الوقف العلمي فيها 2,4 مليار دولار، أما على مستوى الجامعات العالمية فتحتل جامعة هارفارد الأمريكية المرتبة الأولى حيث يبلغ حجم الأوقاف فيها حوالي 35 مليار دولار، حيث تستخدم عوائد استثمار هذا الأوقاف في تغطية نفقات الجامعة، وتقديم مساعدات مالية للطلبة المتفوقين، (تقدر قيمة المساعدات السنوية للطلبة المتفوقين في الجامعة بـ 160 مليون دولار)، ودفع رواتب أعضاء الهيئة التدريسية، وتمويل العديد من الكراسي العلمية، وصيانة مرافق الجامعة المختلفة، (أبو الفتوح، 2003). ويمثل الجدول رقم (1) حجم الأوقاف العلمية في بعض من الجامعات العالمية

الرقم	اسم الجامعة	الدولة	قيمة الأوقاف
1			35
2			23
3			13
4			3 9
5			2 4
6			1 3
7			650
8			280

المصدر: أبو الفتوح، عبد الله، الوقف ودوره في تقدم المسلمين، دار التجارة للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 2003، ص 103.

كما يمثل الجدول رقم (2) قيمة الأوقاف العلمية لبعض الجامعات الأمريكية

()	
35		
22		
17		
16		
16		
10		MIT
7		
7		

المصدر: أبو الفتوح، عبد الله، الوقف ودوره في تقدم المسلمين، دار التجارة للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 2003، ص 104.

تصور مقترح لكيفية دعم الأوقاف لمؤسسات التعليم العالي.

مما لاشك فيه أن دعم مؤسسات التعليم وخاصة التعليم العالي هو المفتاح للتقدم العلمي في أي مجتمع وذلك من خلال توفير هذا النوع من التعليم بشكل مجاني أو برسوم بسيطة، بالإضافة لتقديم المنح الدراسية للطلبة المتفوقين دراسياً ودعمهم وأبحاثهم العلمية، وقد اتضح لنا الدور الذي كانت تقوم فيه الأوقاف الإسلامية في النهضة العلمية في العصور السابقة، فلا بد من الاستفادة من الأوقاف في هذا المجال وتوجيه الشركات ورجال الأعمال والموسرين لإنشاء مثل تلك الأوقاف والتي تشرف عليها الجامعات بنفسها، أو إيجاد هيئة مرجعية في

وزارة التعليم العالي لهذا المجال من خلال نشر الوعي بالأوقاف العلمية، وبيان دورها في تقدم المجتمع، والتعريف بالمجالات التي من الممكن أن يسهم فيه الوقف في دعم مسيرة التعليم العالي، وضع الإجراءات واللوائح التي تنظم تلك الأوقاف.

ويبدو ذلك أكثر أهمية خاصة إذا علمنا بان المجتمعات العربية اليوم تتميز بان الشباب يشكلون نسبة كبيرة من السكان، والذين يجب توفير التعليم العالي لهم، كما أن الزيادة السكانية العالية أيضاً تحتم على الحكومات والجهات الرسمية ضرورة فتح العديد من الجامعات التي تستقبل أولئك الشباب، مما يعني المزيد من الكلف المالية. كما لا بد من الإشارة هنا لوجود العديد من المبررات التي تدفع لضرورة تبني مؤسسات التعليم العالي للوقف العلمي لغايات تمويل تلك المؤسسات، ومن هذه المبررات:

- حث الشريعة الإسلامية على الوقف في سبيل الله والترغيب فيه، كما أن الشريعة الإسلامية أيضاً حثت على طلب العلم والتشجيع عليه.
 - التقليل من الأعباء المالية التي تتحملها الدولة في الإنفاق على التعليم العالي.
 - يعتبر الوقف صهام الأمان لمؤسسات التعليم العالي بما يوفره من مورد مالي دائم لها خاصة مع التوجهات العالمية نحو التخصصية وتخلي الدولة عن الكثير من التزاماتها.
 - سيفتح الوقف العلمي الباب أمام الكثير من الجهات والأفراد للمساهمة في هذه الأوقاف، ويمكن ربط ذلك بما يسمى الآن المسؤولية المجتمعية للمؤسسات.
 - النمو السكاني المتزايد والذي يفرض إقامة مؤسسات تعليم عالي جديدة أو زيادة الطاقة الاستيعابية للمؤسسات القائمة حيث يوفر الوقف مصدر دائم لتمويل تلك المؤسسات.
- المبحث الثالث: تجربة جامعة الملك سعود في إنشاء أوقاف علمية.**

جامعة الملك سعود

تقع جامعة الملك سعود في مدينة الرياض، وقد تم افتتاحها عام 1957، وهي ثاني أكبر جامعة في المملكة العربية السعودية بعد جامعة أم القرى، وثاني أكبر جامعة من حيث المساحة في العالم، وبلغت ميزانية الجامعة عام 2015 حوالي 8 مليار ريال، ويدرس فيها حوالي (70 ألف) طالب وطالبة، يدرسون في مراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه (موقع جامعة الملك سعود، 2016).

الوقف العلمي لجامعة الملك سعود

قامت جامعة الملك سعود بتأسيس الوقف العلمي للجامعة عام 2007م، حيث تمتلك جامعة الملك سعود محفظة استثمارية عقارية وقفية يبلغ قيمتها حوالي 1.5 مليار دولار، وتسعى لان تصل إلى 25 مليار بحلول عام 2040م، وذلك للمساهمة في تعزيز الموارد المالية الذاتية للجامعة، ودعم مجالات البحث العلمي المختلفة،

وقد كانت باكورة أعمال الوقف العلمي، إنشاء وقف عقاري يحتوي على احد عشر برج، تم تمويلها جزئياً من موارد الجامعة نفسها، والجزء الأكبر من مجموعة من رجال الأعمال السعوديين، وتبلغ كلفة هذه الوقف حوالي 1.3 مليار دولار، (الشهراني، 2012).

وقد تم اختيار موقع الوقف بعناية لكي يكون لهذا الموقع ميزة استثمارية، فهو يقع بالقرب من العديد من المؤسسات العلمية المهمة، مثل مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، وواحة الملك سلمان للعلوم، ومؤسسة الملك عبد العزيز ورجالة للموهبة والإبداع، بالإضافة لان الموقع يقع بالقرب من الحي الدبلوماسي في الرياض، ومنطقة الدرعية التي تعتبر معلماً تاريخياً مهماً، كما أن الموقع يبعد عن مطار الملك خالد حوالي 28 كلم (الشهراني، 2012).

أهداف الوقف العلمي لجامعة الملك سعود

لوقف جامعة الملك سعود عدد من الأهداف التي يسعى لتحقيقها وهي (التقرير السنوي، 1434):-

- 1- تعزيز القدرات المالية للجامعة لتحفيز الإبداع والتميز على كافة الأصعدة.
- 2- تمويل برامج البحث العلمي المختلفة وبما يخدم المجتمع المحلي، ويعزز اقتصاديات المعرفة لتحقيق التنمية المستدامة للوطن.
- 3- دعم الأنشطة التي تؤدي إلى تحسين مستوى الجامعة في التصنيفات العالمية وتعزيز جهود البحث والتطوير والتعليم.
- 4- كفاءة الباحثين والمبدعين والموهوبين والمتميزين ورعايتهم.
- 5- زيادة الاستفادة من موارد الجامعة البشرية والبنية التحتية والتجهيزات.
- 6- ودعم المستشفيات الجامعية، والأبحاث الصحية لعلاج الأمراض المزمنة وإجراء الأبحاث المفيدة للبشرية.
- 7- تفعيل العلاقة بين الجامعة والمجتمع، تحقيقاً لرسالة الجامعة المبنية على تحقيق الشراكة المجتمعية لبناء مجتمع المعرفة.
- 8- المساهمة في تنفيذ مشاريع متميزة رائده وذات نفع عام.
- 9- تعزيز أعمال الخير والتكافل الاجتماعي في المجتمع.
- 10- استقطاب كوادر تعليمية وبخثية على قدر كبير من الكفاءة والتميز وبهذا تستطيع الجامعة تزويد المجتمع بمخرجات تعليمية أفضل.
- 11- دعم وتوسيع البنية التحتية للجامعة دون إثقال كاهل ميزانية الجامعة.

مشاريع وقف جامعة الملك سعود

قامت جامعة الملك سعود من خلال إدارة وقف الجامعة بإنشاء عدة مشاريع مختلفة ذات أهداف متعددة وهذه المشاريع هي (أل عبد المحسن، 1434):-

أولاً: أبراج الجامعة.

تعتبر أبراج الجامعة أول مشاريع وقف جامعة الملك سعود، وهي عبارة عن مشروع استثماري مقام على ارض الجامعة، حيث يتكون المشروع من احد عشر برجاً تستخدم لأغراض متعددة فبعضها مرتبط بمجموعات فندقية عالمية وقصور للمؤتمرات بالإضافة للخدمات التجارية والأسواق.

وقد تم اختيار موقع الأبراج في منطقة حيوية مما يعكس الجدوى الاقتصادية للاستثمار في هذه الأبراج. كما أن موقع الوقف يمكن العاملين والدارسين في الجامعة من الاستفادة من الخدمات المقدمة فيه، بالإضافة للزائرين والسكان المحليين، حيث تقع الأبراج داخل المدينة الجامعية. وقد بدأ التشغيل الفعلي لهذه الأبراج عام 2015، ومحوالي 34 مشغلين لهذه الأبراج مجموعة هيلتون العالمية للفنادق والتي أقامت فندقين في الأبراج وهما فندق هيلتون الرياض، وفندق وريزيدانس هيلتون جامعة الملك سعود.

يتكون المشروع من عدد من العناصر متعددة الاستخدامات وهذه العناصر هي:

- 1- منارة الملك عبد الله للمعرفة. بعد إجراء العديد من الدراسات المتعلقة بالتجارب العالمية للأوقاف ثبت أن المشاريع متعددة الاستخدامات هي الأكثر جدوى، حيث أن الاستخدامات المتعددة تغذي بعضها البعض مما يشكل التوازن المطلوب لمثل تلك المشروعات، وقد اعتمدت هذه النتيجة في إنشاء منارة الملك عبد الله المعرفة، والتي تتكون من العديد من الاستخدامات الفندقية والمكتبية والتجارية والترفيهية بالإضافة لمركز مؤتمرات، كما أن موقع المنارة المميز على بوابة مدينة الرياض الشمالية الغربية يعطيها بعداً آخر، وتتكون المنارة من 49 دور، (التقرير السنوي، 1434).
- 2- برج الأجنحة الفندقية. وهو البرج الأول من الجهة الشمالية لمنارة الملك عبد الله للمعرفة ويتكون من خمسة عشر طابقاً لفندق خمسة نجوم.
- 3- برج الأمير سلطان بن عبد العزيز للأبحاث الصحية وطب الطوارئ. يقع بالقرب من مدخل الجامعة الجنوبي وتبلغ مساحته حوالي 34 ألف متر مربع بواقع واحد عشر طابق.
- 4- برج المعلم محمد بن لادن المكتبي. يتميز البرج بموقعة بجوار المدخل الجنوبي للجامعة وتبلغ مساحة البرج 65 ألف متر مربع، وقد خصص للأعمال المكتبية ومواقف السيارات والمحلات تجارية ويتكون من سبعة ادوار.
- 5- برج مصرف الراجحي الطبي. يتكون البرج من اثنا عشر طابق ويقع البرج بالقرب من المجمع الطبي لجامعة الملك سعود، ويقدم خدمات صحية عالية الجودة من خلال مراكز طبية متخصصة عالية الجودة، وعيادات خارجية، وتبلغ مساحته 40 ألف متر مربع، وقد تم تأجيره لغاية إقامة مستشفى عالمي، (التقرير السنوي، 1434).
- 6- برج الشيخ صالح كامل. وهو برج مخصص للأجنحة الفندقية بمساحة 25 ألف متر مربع، ومواقف للسيارات وطوابق خدمات.
- 7- برج الدكتور ناصر الرشيد. يقع بالقرب من مدخل الجامعة الجنوبي مساحته حوالي 24 ألف متر مربع، ويتكون من سبع ادوار.
- 8- برج الشيخ عبد الرحمن الهليل. يقع بالقرب من مدخل الجامعة الجنوبي ومساحته 20 ألف متر مربع ويتكون من سبع ادوار.
- 9- برج الشيخ محمد العامودي. مكون من اثنا عشر طابق ذو استخدامات متعددة.

ثانياً: أبراج الجامعة الطبية

وهي مجموعة من الأبراج المخصصة للخدمات الطبية والتشخيصية، بالإضافة لمول تجاري يقدم خدمات متعددة. وقد تم جمع تبرعات بقيمة 950 مليون ريال لهذه الغاية (التقرير السنوي، 1435).

نظام التبرع والاستقطاع

تم إنشاء نظام للتبرع للوقف وهو نظام الكتروني حيث يستطيع أي شخص التبرع لهذا الوقف الكترونياً، وقد تم إطلاق مبادرة داخل حرم الجامعة لاستقبال تبرعات منسوبي الجامعة والطلبة فيها (التقرير السنوي، 1434).

إيرادات الوقف

من المتوقع أن يحقق وقف جامعة الملك سعود إيراد سنوي قيمته حوالي أربعة مليار وسبعائة مليون ريال، بواقع 30% من ميزانية الجامعة السنوية (الشهراني، 2012).

الخاتمة

مما لا شك فيه أن الوقف على مؤسسات التعليم العالي يمكن تلك المؤسسات من خدمة طلاب العلم وخاصة المتفوقين منهم والذين لا تسمح ظروفهم المادية من إكمال دراسته العليا، الأمر الذي يحرم المجتمع من أولئك المتفوقين وأصحاب الكفاءات في كافة المجالات والتي تصب في النهاية في خدمة المجتمع، أن أهم جامعات العالم اليوم تقوم على أساليب تمويل مستقاة من الأوقاف الإسلامي، وهنا لا بد من العودة لنظام الأوقاف الجامعية والتي تسهم في دعم مؤسسات التعليم العالي في العالم الإسلامي، وإذا نظرنا مثلاً لدولة مثل الأردن فان مديونية الجامعات الحكومية تبلغ 139.5 مليون دينار وذلك عام 2015 (الرأي، 2016)، أن هذه المديونية تظهر الحاجة لوجود مؤسسات تعنى بدعم مؤسسات التعليم العالي وتقديم الدعم المالي لها، من خلال مصدر ثابت ومتجدد، وهذا ما تتميز به الأوقاف العلمية التي يجب استثمارها في هذا المجال.

النتائج

أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا الموضوع:

- 1- يعرف الوقف أصلاً من المكث، وهو مصدر وقف بمعنى الحبس والمنع، والوقف جائز في الإسلام، وهو مندوب إليه لفعاله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه، وللوقف أركان وأنواع معينة ومحددة.
- 2- شرع الوقف لتحقيق العديد من المنافع سواء كان الأمر يتعلق بالواقف أو المجتمع بشكل عام من خلال تحقيق مصالح الأمة الإسلامية وتحقيق التكافل والترابط بين أفراد المجتمع المسلم.
- 3- للوقف العلمي أغراض متعددة وأبرزها إنشاء المؤسسات التعليمية والبحثية المختلفة ودعمها، ومساعدة الطلاب على الدراسة، وتقديم التمويل لأصحاب المشروعات العلمية المختلفة والتي تعود بالنفع على المجتمع وكفالة العلماء والمدرسين.

4- قامت جامعة الملك سعود بتأسيس الوقف العلمي للجامعة عام 2007م، حيث تمتلك جامعة الملك سعود محفظة استثمارية عقارية ووقفية يبلغ قيمتها حوالي 1.5 مليار دولار، وتسعى لان تصل إلى 25 مليار بحلول عام 2040م.

5- لوقف جامعة الملك سعود عدد من الأهداف التي يسعى لتحقيقها أهمها تعزيز القدرات المالية للجامعة، وتمويل برامج البحث العلمي، وكفالة الباحثين والمبدعين، ويتكون وقف جامعة الملك سعود من عدة مشاريع هي أبراج الجامعة، وأبراج الجامعة الطبية.

التوصيات

في ضوء النتائج التي توصلت لها الدراسة فإننا نوصي بما يلي:-

- 1- لا بد من بيان وشرح المنافع والفوائد المختلفة التي تعود على الأمة بشكل عام من خلال تفعيل ودعم هذا النوع من الأوقاف ويتم ذلك من خلال التعريف بالوقف العلمي في وسائل الإعلام، والدروس والمحاضرات الدينية، بالإضافة لقد المؤتمرات العلمية المتخصصة بهذا المجال.
- 2- دراسة تجارب بعض الأوقاف العلمية والاستفادة منها بما يحقق المصلحة العامة.
- 3- إيجاد مؤسسات حكومية تعنى بهذا الموضوع من خلال وزارات التعليم العالي والشؤون الدينية في البلاد الإسلامية.
- 4- تحفز رجال الأعمال والشركات والمؤسسات الخاصة للمشاركة في إقامة الأوقاف العلمية.

المراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- ابن فارس، احمد بن زكريا، (1991)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق خالد سليمان، الطبعة الثانية، بيروت، دار الطليعة.
- 3- ابن قدامه ، موفق الدين، (1997)، المغني، الطبعة الثانية، بيروت دار عالم الكتاب.
- 4- ابن منظور، محمد بن بكر، (1991)، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار الصياد.
- 5- أبو الفتوح، عبد الله، (2003)، الوقف ودوره في تقدم المسلمين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار التجارة للنشر.
- 6- آل عبد المحسن، سليمان، الأوقاف في المملكة العربية السعودية وسبل تطويرها، الطبعة الأولى، الرياض، دار الجريسان 1434.
- 7- جامعة الملك سعود، (1434)، التقرير السنوي لوقف جامعة الملك سعود.
- 8- حشيش، عادل، (1435)، الوصايا والوقف، الطبعة الأولى، الرياض، المطابع السعودية.
- 9- راغب، حسين، (2006)، رؤية إستراتيجية للنهوض بالوقف، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار الكتاب الإسلامي.
- 10- سعيد، صالح، (1999)، الأوقاف في العصر العباسي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار شباب الجامعة للنشر.
- 11- شافعي زكي، (2001)، نحو تطوير صيغ الوقف الإسلامي، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الشروق.
- 12- شحادة، محمد، (2008)، استثمار أموال الأوقاف، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المحروسة للنشر.

- 13- الشريحي، عبد الله ، (2009)، الوقف اقتصاد وحضارة، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الإسلامية، قطر.
- 14- الشهراني، خالد، (2012) الأوقاف ودورها في دعم التنمية في السعودية، الطبعة الأولى، السعودية، دار أنوار الرياض للنشر.
- 15- عابد، عبد الله، (1998)، دور الوقف في نشر العلم، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة هبة للنشر.
- 16- العاصم، عبد الحميد، (2009)، الأوقاف السلامية ودورها في تحقيق التنمية المجتمعية، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف والتنمية، تونس.
- 17- عبد السلام، خيرى، (2008)، الأوقاف في العصر العباسي، الطبعة الأولى، جدة، دار أنوار جدة للنشر، جدة.
- 18- عبد الغني، عيسى، (2011)، دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الجامعة للنشر.
- 19- العوشن، سايمان، نحو إحياء الوقف في دول العالم الإسلامي، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الإسلامية، قطر، 2011.
- 20- مسلم بن الحجاج، النيسابوري، صحيح مسلم، الطبعة الثانية، دار النوادر، 1988..
- 21- موقع جامعة الملك سعود على شبكة الانترنت، <http://ksu.edu.sa> / www.

مناهج المؤلفين المسلمين في كتب الخراج والأموال: قدامة بن جعفر نموذجاً

د. محمد علي محمد إسماعيل
كلية الآداب / جامعة مصراتة ليبيا.

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. لقد تطورت مناهج المؤلفين طيلة القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة، فأشتملت على عديد المناهج شتى، وأخذت مسارب متعددة، بين العلماء على مختلف اتجاهاتهم الفكرية وتخصصاتهم العلمية، ومن هذه التخصصات كان التأليف في كتب الخراج والأموال، ويعتبر كتاب الخراج للقاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة (182هـ/798م) من أول ما كُتب في هذا الشأن، وتبعه في هذا المنحى أي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (224هـ/838م) الذي ألف كتاباً سماه كتاب الأموال تناول فيه موارد الدولة، ثم تتابع التأليف في هذا الفن. تمكن أهمية هذا الموضوع بأن له جوانب حضارية مضيئة جديرة بالبحث والدراسة والاهتمام كونه يقف على مميزات مناهج التأليف عند المسلمين، والتي يتضح لنا من خلالها تطور المنهج عندهم. سأنتطرق في هذا البحث للتعريف بمؤلف كتاب الخراج وصناعة الكتابة قدامة بن جعفر من حيث نشأته وحياته وأساتذته وتلاميذه والعصر الذي عاش فيه، ثم الحديث عن مؤلفاته والتي من بينها كتابه الخراج وصناعة الكتابة، وسأحاول أن أعطي نبذة عن محتواه يعقبها ملاحظات نقدية على المنهج الذي اتبعه المؤلف.

- حياة قدامة بن جعفر⁽⁶⁰⁾ و نشأته:

هو أبو الفرج، قدامة بن جعفر بن قدامة، بن زياد، الكاتب، البغدادي⁽⁶¹⁾، لم تذكر لنا المصادر التي ترجمت له، معلومات وافرة، عن حياته، وكل ما ذكر، لا يتناسب مع غزارة علمه، وسعة أفقه، وموسوعيته، ومن خلال قراءتي لمن ترجموا لقدامه، يتبين أنه ولد في الثلث الأخير من (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) بالكوفة، وأنه كان نصرانياً ثم أسلم علي يد الخليفة العباسي المكتفي، ونستنتج من هذا أمرين: الأول أنه كان سليل عائلة معروفة بالعلم، فأبوه جعفر بن قدامة تضاربت الأقوال في الشهادة له بالعلم، فابن النديم يصفه بأنه لا علم عنده⁽⁶²⁾، ويخالفه في هذا الخطيب البغدادي، الذي يثني عليه ويشهد له بالعلم⁽⁶³⁾، والأمر الثاني أنه كان من المقربين من

(60) ابن النديم، المصدر السابق، ص 144، ابن الجوزي، المنتظم، 363/6، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 298/3، الصفدي،

الوافي بالوفيات 205/24 – 206، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب 242/4، الزركلي، الأعلام، 128/8.

(61) يتفق كل من ترجم لقدامه علي كنيته، أبي الفرج، إلا أبو حيان فيكتبه بأبي عمرو، وابن تغري بردي يكتبه بأبي جعفر. أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، 108/1؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 108/1.

(62) ابن النديم، الفهرست، ص 188.

(63) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 9/1.

السلطان وأصحاب القرار، فذكر عنه أنه كان كاتبًا للوزير ابن الفرات، ويبدو هذا أثناء إحدى فترات وزارة ابن الفرات في زمن الخليفة العباسي المقتدر (295 - 320 هـ / 907 - 932 م)، ويروى كذلك أنه كان كاتبًا لمعز الدولة البويهري (334 - 338 هـ / 945 - 949 م) وكتابه لمعز الدولة البويهري تجعلنا نؤيد الرأي بوفاته في سنة (338 هـ / 949 م)⁽⁶⁴⁾ بدلا من سنة (328 هـ / 939 م)⁽⁶⁵⁾.
إضافة لهذا فجدده قدامة بن زياد من النابغين بعلمى الكيمياء والطب⁽⁶⁶⁾.

- أساتذته:

من خلال الاطلاع على سيرته يتبين أنه أخذ العلم عن أبيه وعن مشاهير الأدباء في تلك الفترة فمن أخذ عنهم: **ابن قتيبة**، محمد بن عبد المجيد بن قتيبة الدينوري (ت 267 هـ / 889 م) الأديب المحدث، المؤرخ، صاحب المصنفات العديدة، أشهرها: عيون الأخبار، وأدب الكاتب⁽⁶⁷⁾.

المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت: 286 هـ / 899 م) وهو أحد علماء الجاهزة في علوم البلاغة والنحو والنقد، المعروفين بتشعب معارفهم وتنوع ثقافتهم، من أشهر مؤلفاته: الكامل والفاضل والمقتضب وغيرها⁽⁶⁸⁾.

أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني، ت: 291 هـ / 903 م، عرف بالصلاح والتقوى والصدق كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدثا، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة. ولد ومات في بغداد⁽⁶⁹⁾.

- عصره:

عاصر قدامة بن جعفر أكثر من خليفة عباسي بداية من الخليفة المعتمد علي الله (256 - 279 هـ / 869 - 892 م)⁽⁷⁰⁾ الذي أدرك فترة لا بأس بها من عصره، وتعتبر فترة حكم المعتمد فترة تحرر محدودة عن النفوذ التركي، الذي سيطر علي الخلافة بعد مقتل المتوكل سنة (247 هـ / 861 م)⁽⁷¹⁾، ومع هذا التحرر فإن السلطة الحقيقية في هذا العصر - كانت لأخيه أبي أحمد الموفق، قائد الجيش، وشهد هذا العصر - عودة الخليفة إلى بغداد من سامراء، وشهد هذا العصر استمرارًا لثورة الزنج التي انطلقت سنة (255 هـ / 868 م) علي يد أحد العلويين

(64) ياقوت، معجم الأدباء، 12/17.

(65) ابن النديم، المصدر السابق، ص 188.

(66) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، 95/5.

(67) ياقوت، معجم الأدباء، 48/1، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 42/3، ابن خلدون، المقدمة، ص 553 - 554، حاجي خليفة، كشف الظنون، 48/1.

(68) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 380/3 - 387، ياقوت، معجم الأدباء، 111/119 - 112، ابن خلكان، المصدر السابق،

313/4 - 322، الذهبي سير أعلام النبلاء، 576/13 - 577، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب 4/2.

(69) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، 204/5، ابن خلكان، المصدر السابق، 84/1 - 85.

(70) ابن الجوزي، المنتظم، 122/5.

(71) المصدر نفسه، 123/5.

ويدعى علي بن محمد بن أحمد من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث أُرقت ثورته الدولة العباسية في كل من البحرين وبادية العراق والبصرة، وكانت نهاية هذه الثورة بمقتل زعيمها العلوي سنة (270 هـ / 883م)⁽⁷²⁾

الخليفة العباسي المعتضد بالله (279 – 289 هـ / 892 – 901م) وقد كان هذا العصر عصر رخاء وأمان، فقد أسقط الخليفة الضرائب عن الناس، وأما من الناحية الفكرية، فقد قام الخليفة المعتضد بمنع كل من يبيع كتب الفلاسفة، ومنع القصاصيين والمنجمين من اعتراض الناس في الطرقات، وكان قليل الإشراف، مما أدى لوصفه بالبخل، واهتم كذلك بالشعر، والغزو من النواحي الشمالية بالشام⁽⁷³⁾.

الخليفة العباسي: المكتفي (289 – 295 هـ / 901 – 907م): كانت بداية عصره بداية طيبة، فأمر بهدم السجون، وأمر ببناء جامع مكانها، وأمر برد ما اغتصب من حوائت وبساتين لأصحابها، ومما يحسب له كذلك قضاؤه علي القرامطة في الشام سنة (291 هـ / 903م) ووقفه لهجمات الروم، وإبرامه لاتفاق لتبادل الأسرى معهم⁽⁷⁴⁾.

الخليفة المقنن (295 – 320 هـ / 907 – 932م) وقد كان قدامة بن جعفر خلال هذه الفترة من صناع القرار بالدولة، فكان كاتباً للوزير ابن الفرات، ولم تمدنا المصادر بالتاريخية بتفاصيل عنه⁽⁷⁵⁾.

الخلفاء: القاهر بالله (320 – 322 هـ / 932 – 933م)⁽⁷⁶⁾ الراضي بالله (322 – 329 هـ / 933 – 940م)⁽⁷⁷⁾ المتقي لله (329 – 333 هـ / 940 – 944م)⁽⁷⁸⁾ المكتفي بالله (333 – 334 هـ / 944 – 945م)⁽⁷⁹⁾ وعاصر ثلاث سنوات من فترة خلافة الخليفة العباسي المطيع (334 – 363 هـ / 946 – 974م)⁽⁸⁰⁾ ويذكر ياقوت الحموي⁽⁸¹⁾، أنه تولى هذه الفترة الكتابة لمعز الدولة البويهبي الذي كان مسيطراً سيطرة تامة علي كافة شئون الدولة العباسية⁽⁸²⁾.

مؤلفاته:

- (72) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 249.
 (73) ابن الجوزي، المصدر السابق، 123/5.
 (74) مسكويه، تجارب الأمم 3/1، ابن الجوزي، المصدر السابق، 68/5.
 (75) مسكويه، المصدر السابق، 3/1، ابن الجوزي، المصدر السابق، 69/6، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 378، آدم متز، الحضارة الإسلامية، 33/1.
 (76) مسكويه، المصدر السابق، 267/1، ابن الأثير، الكامل، 234/6.
 (77) المصدر نفسه، 290/1، آدم متز، المصدر السابق، 36/1.
 (78) مسكويه، المصدر السابق، 25/2، ابن الجوزي، المنتظم، 328/6، ابن الأثير، المصدر السابق، 283/6 – 284.
 (79) مسكويه، المصدر السابق، 87/2، ابن الأثير، المصدر السابق، 314/6.
 (80) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 289، الذهبي، دول الإسلام، 208/1، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، الناشر: دار الجبل للطباعة والنشر والتوزيع، 2010م، 63/3. Arnold,
 the caliphate, p. 62.
 (81) ياقوت، معجم الأدباء، 12/17.
 (82) المسعودي، مروج الذهب، 372/4، ابن الأثير، المصدر السابق، 315/6، ابن كثير، البداية، 212/11.

ذكر يا قوت الحموي أنه ألف أحد عشر كتابا، وهي:

- كتاب صابون الغم.
- كتاب جلاء الحزن.
- كتاب درياق الفكر.
- كتاب السياسة.
- كتاب الرد علي ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام.
- كتاب حشوشاء الجليس.
- كتاب صناعة الجدل.
- كتاب زهر الربيع.
- كتاب نزهة القلوب.
- كتاب الرسالة في أبي علي بن مقلة، المعروفة بالنجم الثاقب.
- كتاب صرف المهم⁽⁸³⁾.

ولكن ما ذكر، إما مخطوط بخزائن الكتب وإما مفقود، ولم يطبع له علي حسب علمي إلا ثلاثة كتب باستثناء الخراج وصناعة الكتابة وهي:

- كتاب نقد الشعر⁽⁸⁴⁾:

يعتبر هذا الكتاب، أصلا لجميع الدراسات النقدية بعد قدامة بن جعفر، حيث قسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة: اللفظ والمعنى والوزن والقافية، ورأى أن هذه المكونات تأتلف فيما بينها، فينتج عنها ائتلافات بين اللفظ والمعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف المعنى مع القافية، وأشار قدامة إلى أن الشعر صناعة، كباقي الصناعات، وأنه تأثر في صياغة مضامينه بالثقافات العقلية التي كانت سائدة⁽⁸⁵⁾.

- كتاب جواهر الألفاظ⁽⁸⁶⁾:

يأتي هذا الكتاب في الحرص علي الاهتمام بثقافة الكاتب، فيسوق في هذا الكتاب أربعة عشر- نوعا بلاغيا، تعد

(83) ياقوت ، معجم الأدياء، 12/17.

(84) طبع مرات عديدة منها: مطبعة الجوانب بإسطنبول سنة (1302 هـ/ 1884 م) وطبع كذلك في سنة 1934م بالمطبعة المليجية بالقاهرة، وفي سنة 1948م طبع بمكتبة الخانجي بتحقيق، كمال مصطفى، وطبع سنة 1972 بالقاهرة بمكتبة الكليات الأزهرية، ومع هذا، وضعه محقق كتاب الخراج سنة 1981 محمد حسين الزبيدي من بين الكتب التي مازالت مخطوطا!

(85) نقد الشعر، من صفحات الكتاب.

(86) طبع بمطبعة الخانجي بالقاهرة سنة (1932م) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، وطبع سنة 1985م، بيروت، بدار الكتب العلمية.

عنده أحسن البلاغة وهي: الترصيع والسجع واتساق البناء واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ، والاستعارة وتوفر تمام الأقسام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم، وتلخيص الأوصاف والمبالغة، وتكافؤ المعاني المتقابلة، وإرداف اللواحق وتمثيل المعاني، ولعل هذين الكتابين جعلاً من قدامة بن جعفر من مشاهير البلغاء والفصحاء، الذين يضرب بهم المثل في البلاغة.

- كتاب نقد النثر⁽⁸⁷⁾:

وهذا الكتاب بالرغم من نشره باسم قدامة بن جعفر، إلا أن بعض المحققين أرجعوا هذا الكتاب إلى جزء من كتاب: البرهان في وجوه البيان للأديب إسحاق بن إبراهيم بن سليمان المتوفى بعد سنة (335 هـ / 946م)⁽⁸⁸⁾.

- كتاب الخراج وصناعة الكتابة:

اعتمد محققو الكتاب علي نسخة لمخطوطة فريدة، بمكتبة كوبر للي بتركيا برقم (1702) أديبات عام⁽⁸⁹⁾، وتقع في 254 بعدد (17) سطراً في كل صفحة، وتوجد منها صورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، برقم (1076) تاريخ، وتوجد مخطوطة في دار الكتب الوطنية بباريس برقم (5907) وقد أخذ منها صورة للمكتبة المركزية بجامعة بغداد برقم 18 ودار الكتب المصرية برقم (1971) فقه حنفي.

وكان أول تحقيق للكتاب من قبل المستشرق المعروف دي غويه (De Goeje) المتوفى سنة (1909م)⁽⁹⁰⁾، حيث حقق الباب الحادي عشر، وهو ذكر ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب عن مخطوطة كوبرللي، بعنوان: بُد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ملحقاً بكتاب "المسالك والممالك" لابن خرداذبه (ت: 300هـ / 912م) في ليدن، وقام علي نشره مطبعة برييل سنة (1889م) وكانت الطبعة الثانية سنة (1967م) ضمن السلسلة الجغرافية العربية⁽⁹¹⁾.

كذلك حقق جزء من كتاب الخراج، بعنوان: السياسة عن كتاب الخراج وصناعة الكتابة⁽⁹²⁾، وجزء آخر بعنوان: الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة⁽⁹³⁾.

وأما تحقيقه بالكامل فكان بتحقيق: محمد حسين الزبيدي، بدار الرشيد ببغداد سنة (1981م) وهو التحقيق الوحيد - علي ما أعلم - لما وصلنا من هذا الكتاب.

(87) نشر سنة (1933م) بتحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي.

(88) محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص 122؛ ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد: جامعة بغداد 1387هـ/1967م.

(89) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 243/4.

(90) نجيب العقيقي، المستشرقون، الناشر: دار المعارف، دون تاريخ، 663/2 - 666؛ الزركلي، الأعلام، 338/7.

(91) ألياس سركييس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، 1998م. جمع وترتيب: يوسف ألياس سركييس وأولاده، القاهرة، 1346هـ/1927م، 1994/2؛ جان سوفاجيه، رائد التراث العربي، ترجمة صلاح الدين المنجد، بيروت، 1947م، ص 40 -

41.

(92) حققه مصطفى الحباري المنزلة الثامنة فقط، طبع بشركة المطابع النموذجية بعمان سنة 1981م.

(93) حققه مصطفى الحباري سنة 1986 وقامت بنشره الجامعة الأردنية.

محتوى كتاب الخراج وصناعة الكتابة:

لم يصلنا من هذا الكتاب إلا أجزاءه الأربعة الأخيرة، وأطلق قدامة علي كل جزء لفظة "منزلة" حيث قسمه إلى ثمانية " منازل " بحسب تعبيره⁽⁹⁴⁾، ويبدو أن المنازل الأربعة تتناول: مقدمة تبحث في أهداف تأليف الكتاب وترتيب منازل وآلات الكتابة وأدواتها، والبلاغة والبيان، إضافة لمعرفة الكاتب المشتغل بالدواوين بهذه الأشياء، يتحدث كذلك عن ديواني الخراج والضياح وأقسامهما⁽⁹⁵⁾.

أما القسم الباقي من الكتاب فيشتمل علي " المنازل " من الخامسة وحتى الثامنة وقد قسم كل منزلة إلى أبواب، ووضع عنواناً توضيحياً للكتاب، قال فيه إنه: " يشتمل علي عجائب الأرض والبحار وفتح البلاد ومعرفة خراجها وترتيب الكاتب وما يحتاج إليه من الرياسة، وهو مرتب علي المنازل وبالله التوفيق "⁽⁹⁶⁾.

يبتدئ الكتاب من المنزلة الخامسة، فيقسمها أحد عشر باباً، يذكر في الباب الأول: ديوان الجيش، فيتحدث عن أقسامه المختلفة، كديوان الإنشاء، والمراسم، والمرتبات، وصحائف الجند، وغيرها⁽⁹⁷⁾.

ويذكر في الباب الثاني من المنزلة الخامسة: ديوان النفقات⁽⁹⁸⁾، فيذكر فيه كافة نفقات الدولة علي الموظفين بمختلف دواوينها⁽⁹⁹⁾.

ويذكر في الباب الثالث: ديوان بيت المال⁽¹⁰⁰⁾، فيوضح لنا قدامة الغرض من هذا الديوان، فيذكر أنه لغرض محاسبة صاحب بيت المال "علي ما يرد عليه من الأموال "⁽¹⁰¹⁾.

ويتحدث في الباب الرابع عن: ديوان الرسائل⁽¹⁰²⁾ الذي يشترط فيه لمن أراد أن يتقدم إلى وظيفة الكاتب في هذا الديوان، أن يكون فصيحاً، بليغاً، متواضعاً لما ينشئه في موضعه⁽¹⁰³⁾، ويضرب أمثلة علي كتاب معروفين⁽¹⁰⁴⁾، فيستشهد بالكاتب: أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح⁽¹⁰⁵⁾، فيذكر أمثلة علي حسن كتابته للرسائل ثم يذكر نموذجاً لمراسلة طويلة لأحد الخلفاء، مخاطباً من والاه علي حكم إقليم معين، والغرض من ذكر هذا النموذج

(94) الخراج وصناعة الكتابة، ص.18.

(95) المصدر نفسه، ص 18.

(96) المصدر نفسه، ص 17.

(97) المصدر نفسه، ص 21 - 22.

(98) المصدر نفسه، ص 33.

(99) المصدر نفسه، ص 34، 35.

(100) الخراج وصناعة الكتابة، ص 36.

(101) المصدر نفسه، ص 36.

(102) المصدر نفسه، ص 37.

(103) المصدر نفسه، ص 37.

(104) المصدر نفسه، ص 37.

(105) كان يتولى ديوان الرسائل في زمن المأمون، معروف بالفصاحة وحسن الخط والشعر، توفي سنة (223 هـ/ 828 م)، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 216/5، ياقوت، معجم الأدباء، 161/5 - 183.

تعليم الكتاب، كتابة الرسائل، فيوضح لهم، مقدمة الرسائل وما يجب أن تحتويه⁽¹⁰⁶⁾.

يوضح قدامة من خلال هذه الرسالة الطويلة ما يجب أن يتحلى به القاضي من تقوى الله ومحافته، والعمل بما أمر سبحانه وتعالى، وأن يحكم البلاد التي أمر عليها بالحق والعدل، وأن تكون نيته خالصة لوجه الله، وأن يختار أهل الصلاح والأمانة العالمين بكتاب الله وسنة نبيه - (ص) -⁽¹⁰⁷⁾ وأمره بأن يتخذ من المسجد الجامع مكاناً يتحاكم فيه الناس⁽¹⁰⁸⁾، ويأمره كذلك عند الخروج للحكم أن يكون هادئاً علي سكينته و وقار، ولا يحكم وهو بحالة غضب ورفض⁽¹⁰⁹⁾ وأمره كذلك بأن " لا يجابي شريكاً لشرفه"⁽¹¹⁰⁾ و " لا يزري بوضع لضعفه"⁽¹¹¹⁾.

وأمره بالحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وترك كل ما يخالفه⁽¹¹²⁾، مستدلاً بقول الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)⁽¹¹³⁾، وأمره أن يثبت من شهادة الشهود، ويسأل عن الشهود وأحوالهم، ويكون ذلك بسؤال أهل الصلاح والخير الموثوقين⁽¹¹⁴⁾، وأمره كذلك بمشاورة أهل الحكمة وسداد الرأي فيما استشكل عليه من حكم، وأمره كذلك بالتوقف عن الحكم بالإعدام حتى يكتب إلى الخليفة⁽¹¹⁵⁾، وألا يقبل شهادة فاسق ولا متهم ولا مشكوك في أمره ولا مجلوداً في حد من حدود الله، إلا من عرفت توبته⁽¹¹⁶⁾.
ومما احتوته هذه الرسالة، ألا يرد الحاكم قضاء قاضي من قضاة المسلمين ولا كتابه، ولا يبطل ذلك ولا يدفعه⁽¹¹⁷⁾، وأمره أن يستلم من القاضي الذي قبله كل ما يتعلق بحجج وأموال وودائع⁽¹¹⁸⁾.
ومما يورده كذلك بخصوص أهل الذمة، أن يقبل القاضي شهادتهم في بعضهم ولا يقبل شهادتهم علي المسلمين وأن يحكم فيهم بحكم الإسلام⁽¹¹⁹⁾.
ثم يعرض لنا قدامة بن جعفر، نموذجاً آخر لرسالة من أحد خلفاء المسلمين إلى شخص يكلفه إمامة المسلمين في الصلاة⁽¹²⁰⁾.

(106) هذا جزء منها: " هذا ما عهد به عبد الله فلان، أمير المؤمنين، إلى فلان بن فلان، حين ولاه الحكم بين أهل كور كذا، أمره بتقوى الله وخشيته، والعمل بالحق الذي يزلف عنده، العدل الذي يوافق مرضاته، فإنه عالم بسعادة من لزم طاعته، وشقوة من أثر معصيته، ورجاء أن يكون لسبل الله متبعاً، ولما تناهى عنه من جميل لمذهب مصدقاً". الخراج وصناعة، ص 39.

(107) الخراج وصناعة الكتابة، ص 39.

(108) المصدر نفسه، ص 40.

(109) المصدر نفسه، ص 40.

(110) المصدر نفسه، ص 40.

(111) المصدر نفسه، ص 40.

(112) المصدر نفسه، ص 40.

(113) سورة المائدة: الآية 45.

(114) الخراج وصناعة الكتابة، ص 40.

(115) المصدر نفسه، ص 40.

(116) المصدر نفسه، ص 40.

(117) المصدر نفسه، ص 42.

(118) المصدر نفسه، ص 42.

(119) الخراج وصناعة الكتابة، ص 42.

(120) المصدر نفسه، ص 43.

وتتضمن هذه الرسالة النصح بتقوى الله، والأمر بإقامة الصلاة في وقتها وعدم تأخيرها، وأن يكون دخوله في الصلاة بسكينة ودعة، وأن يرتل القرآن الكريم، وأن يُسمع الناس إذا خطب، وأن يضع كل كلام في موضعه، وأن يكلف من ينوب عنه في غيابه من أهل الفضل والصلاح أو من أقرباء خليفة المسلمين⁽¹²¹⁾.

ويستمر قدامة في عرض نموذج لرسالة أخرى، تتعلق بمن ولاه خليفة المسلمين الحرب بناحية معينة، حيث يوصيه بالتقوى وخشية الله سرًا وعلانية وعلي مجاهدة نفسه، والمحافظة علي دينه، وإعلامه بأن النصر- بيد الله، وأن يتجنب ظلم أحد من الرعية⁽¹²²⁾، وأن يُحسن صحبة من تبعه من الجنود، وأن يكرم القادة المقربين من خليفة المسلمين، وألا يعاقب أحدًا بشبهة دون أن تظهر له الدلائل البينة والعلامات الواضحة علي ما فعل⁽¹²³⁾، وأن يعطى الأمان لمن سلم وأن يتجنب الغدر وأن يراقب الثغور، وأن يطالع الأعمال بنفسه، ولا ينفذ عقوبة تتضمن تطبيق حد من حدود الله إلا بعد إخبار خليفة المسلمين⁽¹²⁴⁾.

وأن يمنع الجند من المشى بدوابهم علي الزرع، وأن يراقب أحوال المحبوسين ويحيلهم إلى القضاء⁽¹²⁵⁾. ويستعرض قدامة نموذجًا آخر من رسائل خليفة المسلمين إلى من ولي علي ثغر من الثغور، فيبدأ الرسالة كالمعتاد بالوصية بالتقوى، والابتعاد عما يغضب الله سبحانه وتعالى وأمور أخرى تتعلق بتعاملاته مع من له سلطة عليهم⁽¹²⁶⁾.

ويختتم قدامة باب ديوان الرسائل بنموذج آخر لرسالة من خليفة المسلمين إلى من ولاه أعمال البريد بناحية معينة⁽¹²⁷⁾.

يبدأ هذه الرسالة كما جرت عليه العادة، بالوصية بالتقوى، ومراقبة الله سبحانه وتعالى في السر- والعلانية، والتحلي بالصدق، والاستعانة بذوي الكفاءات والنزاهة، وغيرها من الأمور التي تتعلق بخصوصيات مسئول البريد⁽¹²⁸⁾.

وينتقل قدامة إلى ذكر الباب الخامس من المنزلة الخامسة، فيذكر ديوان التوقيع والدار⁽¹²⁹⁾ ويذكر فيه كل ما يتعلق بتوقيع الرسائل، وهو شبيه بالشؤون الإدارية اليوم، ثم يذكر الباب السادس من هذه المنزلة ويسميه: ديوان الخاتم، ويوضح لنا أن المراد بالختم، هي الكتب التي يحتاج إلى ختمها بختم أمير المؤمنين⁽¹³⁰⁾.

(121) المصدر نفسه، ص 43، 44.

(122) المصدر نفسه، ص 44.

(123) المصدر نفسه، ص 45.

(124) المصدر نفسه، ص 45.

(125) الخراج وصناعة الكتابة، ص 46.

(126) المصدر نفسه، ص 47 - 50.

(127) المصدر نفسه، ص 50.

(128) المصدر نفسه، ص 50 - 51.

(129) المصدر نفسه، ص 53 - 54.

(130) المصدر نفسه، ص 55 - 57.

ثم يذكر الباب السابع الذى يسميه: ديوان الفض⁽¹³¹⁾، ويقصد بالفض الرسائل الواردة، حيث تجمع الرسائل للخليفة فيقرؤها ثم يعقب عليها تحت التوقيع وتعاد من جديد؛ حيث ترسل إلى كافة الدواوين، وهذا أمرٌ يقول قدامة، أنه كان متعارفًا عليه من قبل⁽¹³²⁾.

ويتطرق قدامة في الباب الثامن للنقود والعيار والأوزان، وديوان دار الضرائب⁽¹³³⁾، ويبدأ هذا الباب علي غير عادته، فيعطينا لمحة تاريخية عن تاريخ النقود، فيوضح كيف انهارت العملة الفارسية بعد سقوط الفرس، وكيف بدأت قوية مع الحجاج بن يوسف زمن الدولة الأموية، بإنشائه لدار طبعت فيها العملة⁽¹³⁴⁾، حيث ازدهرت فيما بعد في عصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك⁽¹³⁵⁾، ويذكر قدامة أن عيار العملة أصبح فيما بعد أكثر جودة في زمن الخلفاء العباسيين، الرشيد والمأمون والواثق⁽¹³⁶⁾.

ثم يتطرق إلى أوزان الدراهم، فيذكر درهما وزنه عشرون قيراطًا ودرهمًا وزنه اثنا عشر- قيراطًا، ودرهمًا وزنه عشرة قيراط⁽¹³⁷⁾، ويتطرق قدامة لديوان الضرب⁽¹³⁸⁾ وديوان الصيرفة المعروف بالجهنزة⁽¹³⁹⁾. ويجبرنا قدامة بمدى قدرة الصياغة علي التحكم في الأمور المالية بطرق غير مشروعة⁽¹⁴⁰⁾.

ويخصص قدامة الباب التاسع للحديث عن: ديوان المظالم⁽¹⁴¹⁾ ويجبرنا بأن هذا الديوان لا بد أن يتولاه رجل ورع يخاف الله، معروف بالعدل والرفقة، صبورٌ علي الناس⁽¹⁴²⁾، ولا بد من وجود موظفين، ونُسخ لتسجيل كافة القضايا واستخراجها حين لزومها من المحفوظات⁽¹⁴³⁾.

ويتناول قدامة في الباب العاشر: الشرطة، فيذكر شروط الكاتب، حيث يؤكد علي ضرورة الكاتب في الشرطة بالإلمام بفنون الكتابة، ويضرب الأمثلة علي ذلك مستشهدًا بالقتل العمد والشبيه بالعمد والخطأ، ويمضي- في ذكر حالات جنائية يؤكد أنه لزاماً علي الكاتب أن يكون علي إلمام بها⁽¹⁴⁴⁾.

ويحدثنا في الباب الحادى عشر عن: ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق⁽¹⁴⁵⁾ فيعطينا معلومات

(131) المصدر نفسه، 58.

(132) الخراج وصناعة الكتابة، ص 58.

(133) المصدر نفسه، ص 59.

(134) المصدر نفسه، ص 59.

(135) المصدر نفسه، ص 60.

(136) المصدر نفسه، ص 60.

(137) المصدر نفسه، ص 61.

(138) المصدر نفسه، ص 61.

(139) المصدر نفسه، ص 62.

(140) المصدر نفسه، ص 62.

(141) المصدر نفسه، 63.

(142) الخراج وصناعة الكتابة، ص 63.

(143) المصدر نفسه، ص 64.

(144) المصدر نفسه، ص 65 – 76.

(145) المصدر نفسه، ص 77.

تفصيلية عن الطرق بين المدن الإسلامية ومن أهم ما ذكره طريق بغداد بمكة المكرمة⁽¹⁴⁶⁾، باعتباره طريق الحجيج، ويبدأ بإعطائنا معلومات جغرافية قيمة عن المسافات بين المناطق⁽¹⁴⁷⁾ ثم يمدنا بكافة الطرق إلى مكة ومن ثم إلى اليمن⁽¹⁴⁸⁾، ثم يتطرق إلى طريق بغداد إلى نواحي المشرق كالأهواز وفارس وأصبهان وكرمان وسجستان وما تبعها⁽¹⁴⁹⁾ ويستمر في إعطاء معلومات دقيقة جدًا تدل علي معرفة دقيقة بهذه الطرق فيذكر المسافات والأسماء المختلفة لهذه المناطق الشرقية⁽¹⁵⁰⁾.

ثم ينتقل للحديث عن طرق أخرى لبغداد ببلاد الشام ومنها إلى مصر وبرقة وشمال إفريقيا⁽¹⁵¹⁾ وبنهاية تفصيلاته للطرق ينهي المنزلة الخامسة؛ حيث كانت نهاية هذه المنزلة باب يعتبر مصدرًا للمعلومات الجغرافية الدقيقة، بلغ عدد صفحاته ثلاثًا وستين صفحة.

يبتدئ قدامة المنزلة السادسة دون ذكر عنوان رئيسي لها، حيث يذكر لنا مباشرة عناوين مرتبة علي أبوابها⁽¹⁵²⁾ وإجمالاً كل ما حوته المنزلة السادسة غالبيتها يتناول موضوعات جغرافيا والقليل لمواضيع تتعلق بعلم الفلك، فيذكر لنا في الباب الأول أن ما يحصل عليه الإنسان من معلومات جغرافية كانت نتيجة لتأمله في حالات الغروب والشروق علي سبيل المثال⁽¹⁵³⁾.

ثم ينتقل إلى الباب الثاني الذي يسميه: "قسمة المعمور من الأرض، ويبدأ هذا الباب بذكر قصة تاريخية ثم يوضح لنا من أين نقلها يقول فيها: "إن الله بعث ملكين فقسما الأرض ثلاثة أقسام وأتيا بالقسمة إلى نوح فكتبنا له ثلاث قرع علي تسمية بنيه سام وحام ويافث وألقيا القرع في إناء وقالوا: أدخل يدك فأخرج علي اسم واحد، فأدخل يده علي اسم سام فخرج من وسط الأرض، وهو من حد النيل إلى حد الترك ثم أدخل يده المرة الثانية علي اسم يافث فخرج له من حد سام إلى امتداد نبات نعش، ثم أدخل يده المرة الثالثة علي اسم حام فخرج من حد سام إلى مطلع سهيل..."⁽¹⁵⁴⁾.

وبعد هذه البداية التاريخية ينتقل إلى تقسيم العالم طبقا لهذه الرواية، حيث يمدنا بمعلومات وافية عن أقاليم المعمورة⁽¹⁵⁵⁾.

وفي الباب الثالث يتناول قدامة بحار الأرض والجزر، فيسمى هذا الباب: "في وضع البحار من الأرض المعمورة

(146) المصدر نفسه، ص 78.

(147) المصدر نفسه، ص 78 - 81.

(148) المصدر نفسه، ص 81 - 87.

(149) المصدر نفسه، ص 88.

(150) المصدر نفسه، ص 89 - 111.

(151) المصدر نفسه، ص 111 - 129.

(152) الخراج وصناعة الكتابة، ص 130.

(153) المصدر نفسه، ص 132 - 137.

(154) المصدر نفسه، ص 138، المسعودي، المروج 31/1.

(155) المصدر نفسه، ص 139 - 144.

أبا بكر وعمر فعلا مثلما فعل رسول الله - (ص) - ⁽¹⁸⁷⁾ ولا يذكر لنا ماذا حل بها في زمن الخليفين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب - رضی الله عنهما - حيث يقول: "ولما ولي معاوية أقطعها مروان بن الحكم، وأن مروان وهبها لعبد العزيز ولعبد الملك ابنه ثم أنها صارت له ولوليد ولسليمان" ⁽¹⁸⁸⁾ إلى أن يصل في سرده لقصة عمر بن العزيز عن أرض فذك لقول عمر بن عبد العزيز: "أشهدوا أني قد رددتها إلى ما كانت عليه" ⁽¹⁸⁹⁾، ومما يسرده قدامة بشأن قصة هذه الأرض، أن الخليفة المأمون أمر بإعطائها لولد فاطمة، وكان هذا كما يقول سنة (320 هـ / 825 م) ⁽¹⁹⁰⁾ حيث كان يعتقد بأحقية فاطمة بنت رسول الله - (ص) - بها ⁽¹⁹¹⁾.

ثم يذكر فتح النبي - (ص) - - لوادى القرى وتفاصيل فتح مكة وغزوة حنين والطائف وغزوات تبوك وباقي الفتوحات الإسلامية زمن الخلافة الراشدة والدولة الأموية ⁽¹⁹²⁾.

ويتناول قدامة بن جعفر في الجزء الأخير من كتابه النظم الاجتماعية والسياسية، فيقسم المنزلة الثامنة إلى اثني عشر بابا يبدوها بستة أبواب تتناول النظم الاجتماعية والستة الأخرى للنظم السياسية، فيعنون الباب الأول بقوله: " في صدور هذه المنزلة" ⁽¹⁹³⁾ حيث يركز علي عظمة الله سبحانه وتعالى وخلقه للملائكة والحيوان والإنسان، ثم يصل إلى نتيجة أن الإنسان يحتاج إلى الاجتماع والتمدن ⁽¹⁹⁴⁾ وبعد الاجتماع يحتاج لسياسة أموره ⁽¹⁹⁵⁾.

ويعلل قدامة بن جعفر في الباب الثاني: " السبب الذي احتاج له الناس إلى التغذية" ⁽¹⁹⁶⁾ فيقول إن الإنسان بحاجة للغذاء "لئلا يبطل جسمه" ونفس الشيء في الباب الثالث المعنون بـ "في السبب الذي احتاج له الناس إلى اللباس والكسوة" ⁽¹⁹⁷⁾ حيث يقول: "ولما خلال الإنسان من الشعر والوبر والریش والصوف والقشور" ⁽¹⁹⁸⁾ صنع لنفسه الملابس ⁽¹⁹⁹⁾.

ويتناول قدامة في الباب الرابع: " السبب الذي احتاج فيه الإنسان إلى التناسل" ⁽²⁰⁰⁾ فيؤكد علي أن التناسل بقاء

(187) الخراج وصناعة الكتابة، ص 260.

(188) المصدر نفسه، ص 260.

(189) المصدر نفسه، ص 260.

(190) المصدر نفسه، ص 260.

(191) المصدر نفسه، ص 260.

(192) المصدر نفسه، ص 262 - 425.

(193) المصدر نفسه، ص 426.

(194) المصدر نفسه، ص 427.

(195) المصدر نفسه، ص 427.

(196) الخراج وصناعة الكتابة، ص 428.

(197) المصدر نفسه، ص 429.

(198) المصدر نفسه، ص 430.

(199) المصدر نفسه، ص 430.

(200) المصدر نفسه، ص 430.

للإنسان من الفناء⁽²⁰¹⁾.

ويتطرق في الباب الخامس إلى: "السبب الذي احتاج له الناس إلى المدن والاجتماع فيها⁽²⁰²⁾ ويعلل هذا بأن الإنسان محب للمؤانسة ومؤثر للاجتماع مع ذوى جنسه؛ وبسبب هذا اتخذ الناس المدن والبلدان واجتمعوا فيها"⁽²⁰³⁾.

ويتناول في الباب السادس: "حاجة الناس إلى الذهب والفضة⁽²⁰⁴⁾، ويعلل ذلك بصعوبة المقايضة بين السلع ولهذا اختاروا الذهب" لطول بقاءه⁽²⁰⁵⁾ ثم كانت الفضة ثم كان النحاس⁽²⁰⁶⁾.

بعد عرضه للأبواب الستة ينتقل قدامة إلى باب سابع يختلف عما سبق فيعنونه باسم "في السبب الداعى إلى إقامة إمام أو ملك للناس يجمعهم"⁽²⁰⁷⁾، يقرر قدامة من خلال هذا الباب أن الناس مأمورون بالتحاكم إلى شرع يتفقون عليه جميعا⁽²⁰⁸⁾، ويؤكد علي ذلك بقوله "فإنه لا ملك إلا بدين وشرع"⁽²⁰⁹⁾ ويؤكد علي وجود رئيس بقوله: "ولا دين إلا بملك وضبط"⁽²¹⁰⁾ ويرى ضرورة التفرد بأمر الملك بقوله: "فليس يكاد يقوم بالحق الذي هو واحد إلا واحد"⁽²¹¹⁾.

ويؤكد في الباب الثامن قائلاً: "..إن النظر في علم السياسة واجب علي الملوك والأئمة"⁽²¹²⁾.

يبحث قدامة من خلال هذا الباب الملوك علي التعلم والتثقيف لكي تستقيم آراؤهم وتصلح أفعالهم وينتفع بذلك رعاياهم⁽²¹³⁾ ويؤكد علي أن صلاح وفساد الناس من صلاح وفساد ملوكهم⁽²¹⁴⁾ ويعرفنا قدامة بالملك الذي يريد إقامة العدل، أنه لا بد له: أن يكون مهيباً يرهب الناس أكثر مما يرغبهم، ويستبد عليهم بأزيد مما يلين لهم⁽²¹⁵⁾.

ويخصص الباب التاسع للحديث عن: أخلاق الملك وما يجب أن يكون عليه⁽²¹⁶⁾، فيؤكد علي ضرورة تحلى الملك بالأخلاق الحسنة والاستقامة ورجاحة العقل⁽²¹⁷⁾ والعلم ومجاهدة الهوى⁽²¹⁸⁾ والشجاعة التي يقسمها قدامة إلى

(201) المصدر نفسه، ص 431.

(202) المصدر نفسه، ص 432.

(203) المصدر نفسه، ص 433.

(204) المصدر نفسه، ص 434.

(205) المصدر نفسه، ص 435.

(206) المصدر نفسه، ص 435.

(207) الخراج وصناعة الكتابة، ص 436.

(208) المصدر نفسه، ص 436.

(209) المصدر نفسه، ص 436.

(210) المصدر نفسه، ص 436.

(211) المصدر نفسه، ص 437.

(212) المصدر نفسه، ص 438.

(213) المصدر نفسه، ص 438.

(214) المصدر نفسه، ص 439.

(215) المصدر نفسه، ص 440.

(216) المصدر نفسه، ص 442.

(217) المصدر نفسه، ص 442.

(218) المصدر نفسه، ص 443.

قسمين: الأول الصبر علي النوازل، والثاني الجرأة علي الملاقاة والمنازلة، ويؤكد كذلك علي نظر الملك لعواقب الأمور⁽²¹⁹⁾، ويستمر في ذكر باقي الأخلاق الحميدة، التي يجب أن يتحلى بها المل⁽²²⁰⁾.

ويعد قدامة في الباب العاشر صفات خدام الملك⁽²²¹⁾ فيذكر عشرين صفة، أولها العقل ثم العلم والود للناس والنصيحة وكتمان السر والعفة علي الشهوات ومجانبة الحسد⁽²²²⁾ والصرامة والصدق والتغافل وحسن الزي والهيئة وبشاشة اللقاء والرافة⁽²²³⁾ والأمانة والإيثار وترك البذخ والكبر وعدم الحرص وألا يكون ثقيل الدم، ثم يستدل ببعض الأمثلة التاريخية⁽²²⁴⁾.

يتناول في الباب الحادي عشر: "أسباب بين الملك وبين الناس إذا تحفظ منها زادت محاسنه وانصرفت المعاييب عنه وتمكنت له سياسته"⁽²²⁵⁾.

يرى قدامة أن الملك تزيد محاسنه يزجره لمن يمدحه وبطلبه للمشورة من أهلها⁽²²⁶⁾، ثم يذكر أمثلة تاريخية لملوك كانوا يأخذون بالمشورة كالإسكندر⁽²²⁷⁾، ويؤكد كذلك علي أن سبب فساد الدولة يرجع إلى علوة السفلة وانحطاط الأشراف، فبعلو السفلة ووصولهم للمراتب المالية يكثر الجهل، ويبعد الرجال الفضلاء عن الأماكن المناسبة لهم⁽²²⁸⁾.

ويُعنون قدامة الباب الأخير من كتاب الخراج وهو الباب الثاني عشر- من المنزلة الثامنة بعنوان: "في استيزار الوزراء وما يحتاج إليه الملوك منهم وما يلزم لهم"⁽²²⁹⁾.

ويحدد قدامة في هذا الباب أفضل الوزراء بالنسبة للملك فيجعل المرتبة الأولى للوزير الذي ولاؤه المطلق للملكه، ويصف قدامة هذا الوزير بأربع عشرة صفة، فيشترط فيه أن يكون تام الأعضاء وجيد الفهم وكثير العلم وحسن التصور وجميل الوجه وحسن العقل والعبارة والملبس وصادق القول وقنوعًا في الأكل والشرب وقليل الشهوة في النكاح، غير متلهف للدرهم والدينار ومحا للعدل وأهله ومبغضًا للجور والظلم، قوي العزيمة علي الشيء، وأن يكون كاتبًا مترسلاً خطاطًا أديبًا، حافظًا للتواريخ وأيام الناس وبسير الملوك وأخبار المتقدمين من الأمم السابقة وألا يكون كثير الكلام وألا يكون من أصحاب المملذات، وأن يكون من المتقين⁽²³⁰⁾، ويشترط كذلك للوزراء

(219) الخراج وصناعة الكتابة، ص 444.

(220) المصدر نفسه، ص 444.

(221) المصدر نفسه، ص 445 - 464.

(222) المصدر نفسه، ص 465.

(223) المصدر نفسه، ص 465.

(224) المصدر نفسه، ص 466.

(225) المصدر نفسه، ص 467 - 471.

(226) المصدر نفسه، ص 472.

(227) المصدر نفسه، ص 473-478.

(228) المصدر نفسه، ص 478-479.

(229) الخراج وصناعة الكتابة، ص 480.

(230) المصدر نفسه، ص 475-480.

أثناء عملهم مع الملوك الإخلاص والعمل علي قوة المملكة والدفاع عنها، ويستشهد قدامة بأقوال لأفلاطون⁽²³¹⁾ ومعاوية بن أبي سفيان⁽²³²⁾، والمأمون⁽²³³⁾، وكل هذه القصص تدور حول إخلاص وطاعة الوزراء لملوكهم⁽²³⁴⁾، ويأتي قدامة إلى نهاية هذا الكتاب فيختمه بعبارة "المشورة في الأمور، وهي أن كانت مشتركة بين العقلاء إلا أنها بالوزراء ألزم"⁽²³⁵⁾.

ملاحظات نقدية:

يكتب قدامة بن جعفر وكأنه يكلم تلميذاً جالساً بين يديه، يبين له ما يجوز وما لا يجوز، وما يصلح، وما لا يصلح، في الكتابة للدواوين، وهو بهذا يستعرض مهاراته اللغوية، والثقافية، ولا سيما وهو يعلق علي مناهج كتاب الدواوين السابقين، وما ينبغي أن يكون عليه كتاب الدواوين في عصره، وتظهر شخصية قدامة العلمية بوضوح خلال صفحات هذا الكتاب، فغزارة معلوماته، وتنوع ثقافته، جعلت منه كاتباً موسوعياً بكل ما للكلمة من معنى، ومن خلال قراءتنا لهذا الكتاب نجد أن قدامة لم تكن له طريقة واحدة. ففي المنزلة الخامسة كانت طريقته تعليمية لكتاب الدواوين وفي المنزلة السادسة كانت مثل طريقة باقى الجغرافيين من حيث حديثه عن الأنهار والجبال والتجار والبلدان وفي المنزلة السابعة كانت طريقته، طريقة الفقهاء؛ حيث إن أغلب أبواب هذه المنزلة تتعلق بموارد الدولة الإسلامية المالية، فكان مناقشاً للعشور والخراج والأخماس، ومرحاً للآراء الفقهية، وفي المنزلة الثامنة كانت طريقته استفهامية كان فيها قدامة مميّزاً ومنفرداً عن باقى معاصريه وسابقيه فتناوله لموضوع حاجة الإنسان والاجتماع لم يسبقه إليها أحد، فما تناوله قدامة بن جعفر تناوله عبد الرحمن بن خلدون⁽²³⁶⁾ بعده بجوالي أربعة قرون، ومع حرص ابن خلدون علي صياغة الأفكار بأسلوبه هو، وتوسعه في التنظير لعلم الاجتماع من خلال مقدمته، إلا أن قدامة سبقه إلى هذا في المنزلة الثامنة والأخيرة من كتابه الخراج وصناعة الكتابة بقوله: "السبب الذي أحتاج له الناس إلى المدن والاجتماع"⁽²³⁷⁾، وتبعه ابن خلدون في مقدمته المعروفة: "إن الاجتماع الإنساني ضروري"⁽²³⁸⁾ وكلاهما يستشهد علي ضرورة الاجتماع وبأن الفرد لا يمكن له أن يقوم بكافة الأعمال فلا بد من الاجتماع، وكلاهما جاء بنفس الأفكار ولكن لكل أسلوبه الخاص به، إذ أن هذه السابقة لقدامة تجعله في مصاف المفكرين في ذلك العصر ولكن لم نسمع عن أحد يتحدث عن دور قدامة بن جعفر في علم الاجتماع!.

(231) المصدر نفسه، ص 482.

(232) المصدر نفسه، ص 483.

(233) المصدر نفسه، ص 484.

(234) المصدر نفسه، ص 485-482.

(235) المصدر نفسه، ص 485.

(236) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، الإشبيلي أصلاً، والتونسي مولداً ومنشأً، ولد سنة (732هـ / 1332م)، وحفظ القرآن، والشاطبيّين، ومختصر ابن الحاجب، والتسهيل في النحو، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط وأخذ ذلك عن أبيه وغيره ومهر في جميعه، وحفظ المعلقات، وحماسة الأعلام، وشعر حبيب بن أوس، وقطعة من شعر المتنبي، وسقط الزند للمعري، وقد توفي في مصر سنة (808هـ / 1406م). تاريخ ابن خلدون، 451/7، ابن العماد، شذارات الذهب، 114/9، الزركلي، الأعلام، 330/3.

(237) الخراج وصناعة الكتابة، ص 432.

(238) المقدمة، 340/1.

يؤخذ علي قدامة مأخذ عديدة في كتابه الخراج وصناعة الكتاب منها: عدم توازن صفحات الكتاب فنجد باباً لا يتجاوز ثلاثة أسطر⁽²³⁹⁾، وباباً آخر تصل صفحاته لأكثر من مائة وسبع وستين صفحة⁽²⁴⁰⁾، ومما يؤخذ عليه كذلك إهماله لأمر الإسناد فلا تجد له حديثاً عن النبي - (ص) - مسنداً.

ولا تجد له مصادر تدل علي معلوماته الوفيرة فقد تناول تاريخ الفتوحات شرقاً وغرباً⁽²⁴¹⁾، ووصف الجبال والأنهار والبلدان⁽²⁴²⁾ ولم يذكر لنا من أين استقى معلوماته وربما من المرات القليلة التي ذكر فيها كتب أخذ منها، كانت أثناء مناقشته لموارد الدولة المالية فنجده يذكر أبا يوسف و يحيى بن آدم وكتاب الأموال لأبي عبيد بن سلام⁽²⁴³⁾. ولا يسير قدامة في كتابه علي وتيرة واحدة، فأتت تناوله للفتوحات الإسلامية يبدأ من الغرب إلى الشرق ثم من الشرق إلى الغرب إلى الأندلس وبعدها يعود للحديث عن بلاد النوبة⁽²⁴⁴⁾.

ويخرج أحياناً عن السياق العام فنجده يذكر موارد الدولة المالية في المنزلة السابعة من الباب الأول إلى الباب الخامس عشر- متناولاً مواضيع تتعلق بالموارد المالية كالعشور والخراج والجزية والفيء ونحوها، ونفاجاً به في الباب السادس عشر يتكلم عن موضوع فقهي صرف يختص بمقاسمة مياه الآبار وحرمتها⁽²⁴⁵⁾.

ومما يميز به قدامة انفراده بقائمة للموارد المالية للدولة المالية ترجع إلى سنة (204هـ/ 819م) إلا أن هذه القائمة وما ورد فيها من جداول تبين قيمة الغلال وقيمتها بالأموال تختلف عما جاء بمتن الكتاب، وربما يرجع هذا لأمرين، إما لخطأ في الحساب أو لاختلاف في نسخ الكتاب⁽²⁴⁶⁾.

يجسب لقدامة تناوله لكافة أمور الحياة السياسية والإدارية والمالية والقضائية والعسكرية والاجتماعية، وإمدادنا بسيل من المعلومات الجغرافية⁽²⁴⁷⁾ والتاريخية⁽²⁴⁸⁾ ومناقشته للأمور الفقهية بخصوص الموارد المالية للدولة الإسلامية⁽²⁴⁹⁾. يتبين لنا من خلال ما كتب انصافه بالموضوعية والحياد وغزارة العلم وتنوع الثقافة، إضافة للأدب الجم وحسن اختيار الألفاظ، ولعل هذه الأخلاق ما دفعت لتقريبه من الخلفاء والأمراء وصناع القرار.

(239) الخراج وصناعة الكتاب، ص 240.

(240) المصدر نفسه، ص 256 - 424.

(241) المصدر نفسه، ص 256 - 424.

(242) المصدر نفسه، ص 77-203.

(243) المصدر نفسه، ص 208، 209، 218، 236.

(244) المصدر نفسه، ص 252.

(245) المصدر نفسه، ص 246.

(246) الخراج وصناعة الكتاب، ص 162 - 166.

(247) المصدر نفسه، ص 132 - 200.

(248) المصدر نفسه، ص 256 - 424.

(249) المصدر نفسه، ص 204 - 256.

دور الطب الإسلامي في تطور العلوم الطبية الحديثة في أوروبا

الدكتور مديوني عمر

المشرف على المشاريع الخارجية (السنغال)

مؤسسة الشيخ عيد آل ثاني الخيرية الدوحة - قطر

هاتف 00221781390699

archiomhf@gmail.com

الدكتورة مديوني جميلة

أستاذ التسويق وإدارة الأعمال بكلية الاقتصاد

والتسيير والتجارة - جامعة الشلف بالجزائر

رقم الهاتف: 00213670304415

mediouni_djamilia2000@yahoo.fr

يتوجه الباحثان بجزيل الشكر وخالص العرفان لكل من ساهم في تنظيم وتحكيم واستضافة أفضل وأكبر مؤتمر للتسويق الاسلامي عالميا، ونشكر لكم جهودكم المضنية في إحياء الإسلام وعزة المسلمين... كل المحاور مهمة وجديرة بالبحث، نأمل أن نكون يا ذن الله حاضرين في طبعات المؤتمر سنويا

ملخص البحث:

إن تقدم منهج العلوم الطبية والذي أصبح اليوم علامة فارقة وميزة يتمتع بها الغرب، كان أحد هدايا العرب للغرب الاوروي الذي عمل ولا زال يعمل على تطويرها، لذا ليس من الغريب أن نرى مدخل كلية الطب في جامعة باريس يزدان بصورتين كبيرتين إحدهما لابن سينا والأخرى لأبو بكر الرازي. كما أن ليس من الغريب أيضا شهادة الطبيب الفرنسي (وغيره من المنصفين المستشرقين) لوسيان لوكيرك في مكانة الزهراوي (مؤسس الجراحة عند العرب) عندما قال عنه: " لقد احتل الزهراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان هذا الثالوث العلمي".

نشأ الطب الإسلامي كنتيجة للتفاعل الذي حدث بين الطب التقليدي العربي والمؤثرات الخارجية. حيث اشتهر العرب والمسلمين بقدرتهم الفائقة في تحصيل العلوم انطلاقا من ثقافة الأقدمين واجتهاداتهم الخاصة، فالفوا كتباً عديدة برسومات وأشكال منظمة في شتى فروع الطب التي كانت معروفة وقتئذ، ابتداء بعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) وعلم الأجنة وعلم الأمراض وعلم الأدوية (الأقرباذين)، فضلا على الطب الباطني وطب الأطفال وطب العيون والجراحة بمختلف أنواعها وأخيرا علم آداب الطب وسلوك الأطباء أو ما يعرف حاليا بأخلاقيات ممارسة المهنة والذي يعتبره الكثيرون في الغرب بأنه علم حديث.

حصل هذا، في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا (في عصورها الوسطى) ظلمات الجهل والتخلف، وكان رجال الكنيسة يجرمون الطب وصناعته معتقدين أن المرض عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عن استحقاقه، وظل الطب محجورا عليهم إلى غاية القرن الثاني عشر للميلاد، فيما عدا بعض الطرق البدائية التي

تعتمد علي السحر والشعوذة أو على أساليب في غاية القسوة.

لقد كان إذا تأثير الأطباء العرب والمسلمين في مجال تطور العلوم الطبية في أوروبا واضحاً وذلك من خلال أمرين اثنين؛ أولهما الترجمة إلى اللاتينية، حيث كانت ترجمة كتاب "القانون في الطب" لابن سينا أحد أعظم أعمال الترجمة لكتب طبية، والذي طبع وانتشر في أوروبا كمرجع أساسي في الطب لعدة قرون حتى بداية العصر الحديث. أما الأمر الثاني فقد كان من خلال انتقال الخبرات العملية التي اكتسبها العرب نتيجة لممارستهم للطب في البيمارستانات (المستشفيات الإسلامية) التي كانت منتشرة في كافة أرجاء البلاد الإسلامية ولم تعرف في أوروبا إلا بعد الحروب الصليبية.

على أساس ما تقدم يهدف هذا البحث إلى إبراز أهم التوجيهات الوقائية والعلاجية للطب النبوي ثم استعراض أهم إنجازات الأطباء العرب الأوائل في مجال العلوم الطبية، ومن ثم تبيان مدى وكيفية استفادة أوروبا أو الغرب عموماً من تلك الإنجازات وذلك وفق منهج بحث تاريخي قائم على النقد والتحليل والمقارنة.

الكلمات المفتاح: الطب الإسلامي، الطب النبوي، الحضارة الإسلامية، الحضارة الغربية، أوروبا.

Resume :

Le progrès et le développement des programmes d'études de la science médicale qui est aujourd'hui un avantage marquant au profit de l'Occident, il n'était que l'un des apports arabo-musulmans pour l'Europe occidentale. Il est donc pas étrange de voir l'entrée de la Faculté de médecine de l'Université de Paris décoré avec deux grandes photos une est pour Ibn Sina et l'autre pour Al-razi, et sans surprise également une attestation du médecin français Louisiane Leclerc (et celui d'autres équitables orientalistes) sur la place d' Al-Zahrawi (fondateur de la chirurgie chez les arabes) quand il a dit " **Al - Zahrawi a occupé une haute place aux instituts de France avec Hippocrate et Galien et il est devenu l'un des piliers de cette Trinité scientifique**"

L'impact des médecins arabes et musulmans dans le domaine du développement de la science médicale en Europe était si clair, à travers les deux principaux points:

Premièrement c'est la traduction en latin ou la traduction du livre la loi en médecine était parmi les grand travaux de la traduction des livres de sciences médicales et ce qui a été imprimé et se répandre en Europe comme une référence essentielle en médecine pendant plusieurs siècles jusqu'à ce que le début de l'ère moderne.

Et le deuxième point c'est la transition des expériences arabes acquises par la pratique de la médecine dans les pimearstanes (les hôpitaux islamiques) qui ont été connus partout dans le pays islamique et que ne savait pas en Europe seulement après les Croisades.

Sur la base de ce qui précède, Cet article vise à mettre en évidence le plus important des conseils préventifs et thérapeutiques de la médecine du Prophète Mohammed (que la paix de Dieu soit sur lui)

et l'examen des réalisations les plus importantes des premiers médecins arabes dans le domaine de la science médicale, puis indiquer comment l'Europe ou généralement l'occident a bénéficié de ces réalisations.

Mots clés : la médecine prophétique, arabo-musulmans, la civilisation musulmane, l'occident

مقدمة

إن بعض الأقسام والمؤسسات العلمية في الغرب تشكل بل وحتى تشوه الدور الحضاري الذي اضطلع به العرب والمسلمون الأوائل خلال حقبة القرون الوسطى، وتدعي بأن العقل العربي وعلى مر العصور لم يتمكن من امتلاك ناصية العلم والمعرفة وتسلم زمام البحث العلمي، وأن تفسير ما حدث في القرون الوسطى، ما هو إلا اجترار لعلوم الأقدمين من اليونان والإغري وغيرهما. لذلك لابد لنا إزاء هذا الزيف من أن نضع الأمور في مكانها الحقيقي، ونبين الدور الحقيقي والهام للعلماء العرب في تطوير العلوم التي ورثوها عن الأقدمين، فدرسوها وأضافوا إليها ثم قدموها للغرب الأوربي، الذي بدوره عمل ولا زال يعمل على تطويرها.

ففي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب، لأن المرض عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عن مستحقته، وهو الاعتقاد الذي ظل سائدًا في الغرب حتى القرن الثاني عشر. بدأ المسلمون في القرن التاسع الميلادي في تطوير نظام طبي يعتمد على التحليل العلمي والمنطقي وبمرور الزمن، بدأ الناس يقتنعون بأهمية العلوم الصحية، واجتهد الأطباء الأوائل في إيجاد سبل العلاج حيث أفرز الطب الإسلامي في

العصور الوسطى بعض أعظم الأطباء في التاريخ، الذين طوروا المستشفيات (البيمارستانات)، ومارسوا الجراحة على نطاق واسع.

وبعد الرازي وابن سينا والزهرراوي من أعظم هؤلاء الأطباء، وظلت كتبهم تدرّس في المدارس الطبية الإسلامية لفترات طويلة، كما كان لهم وبالأخص ابن سينا أثرًا عظيمًا على الطب في أوروبا في العصور الوسطى، وفي هذا الشأن يصف الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك مكانة الزهرراوي في تطور الطب العالمي بقوله أن الزهرراوي يعد في تاريخ الطب أسمى تعبير عن علم الجراحة عند العرب، وقد احتل الزهرراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان هذا الثالوث العلمي".

ولا يسعنا المجال للحديث بإسهاب عن هذا الموضوع الهام لكن سنحاول تسليط الضوء على بعض جوانبه من حيث النقاط التالية:

أولاً: الرعاية الصحية والطبية عند الأمم القديمة

ثانياً: التدابير الصحية الوقائية والعلاجية في الطب النبوي

ثالثاً: طرق انتقال خدمات الطب الإسلامي إلى أوروبا

رابعاً: مظاهر استفادة أوروبا من خدمات الطب الإسلامي

أولاً: نبذة مختصرة عن الرعاية الصحية والطبية عند الأمم القديمة

ساد الاعتقاد في العصور الغابرة بأن المرض أو الألم لعنة الآلهة حلت بمن ارتكب خطيئة، أو هوحلول شيطان أو روح شريرة فيه، كان يرافقه الاعتقاد بأن إزالة المرض (كنتيجة) يكون بإزالة اللعنة أو طرد الشيطان أو الروح الشريرة (كسبب للمرض)،²⁵⁰ وعلى هذا كانت النظرة المهيمنة في هذا المجال، نظرة روحانية بحثة، حصرت ممارسة الطب فبين هم مختصون بالجوانب الروحانية وهم الكهنة والقديسون والسحرة والمشعوذون من خلال الدعاء أو الصلاة للآلهة طلباً لشفاء المريض، أو استخدام القوة لطرد الشيطان أو إعطاء المريض مواد كريمة لطرد الأرواح الشريرة، ولو أدى ذلك إلى موته.²⁵¹

كما اعتقد الأقدمون أن الكواكب تسيطر على الكائنات جميعاً، ومنها الإنسان وأن لكل إنسان كوكبه الذي يسيطر على حياته، لذلك فإنهم كانوا يصلون لتلك الكواكب، ويبتهلون من أجل شفاء المرضى.

وعندما وجد أنهم لم تحل إشكالاته، أخذ يتفحص الطبيعة بما فيها من حشائش وأعشاب، وهوام، وحشرات، فأخذ يأكل من هذه، ويصنع تلك، ويخلط ذاك بتلك، فتوصل في نهاية المطاف من خلال الخطأ والصواب، لمجموعة من العقاقير المستخلصة من الطبيعة لمعالجة بعض أمراضه والتخفيف من أوجاعه.

250 ردينة عثمان يوسف، التسويق الصحي والاجتماعي، عمان، دار المناهج، 2007 ص17.

251 فيصل مرعي الشلبي، مستوى الخدمات الصحية المقدمة في المستشفيات الحكومية الأردنية: دراسة تقييمية من وجهة نظر الاطباء العاملين فيها، رسالة ماجستير في العلوم الادارية،

الأردن، جامعة اليرموك، 1999 ص12.

ويبدو كما تذكر الدراسات أن الفراعنة أعطوا للصحة ومعالجة الأمراض أهمية قصوى، وهذا يتضح من خلال ما قدموه للإنسانية، من إنجازات في هذا المجال، فقد برعوا في تشخيص وحصر الأمراض والتحنيط، ويظهر من دراسة بعض المومياءات أن الفراعنة برعوا في الجراحة، وذلك من خلال الآثار التي تحملها تلك المومياءات، وعند تأمل البرديات المصرية المحفوظة في متاحف العالم، يلاحظ أن المصريين جعلوا من (أمنحوتب)، إلهما للطب، وعدوه أول طبيب عندهم إلى جانب كونه حاكماً، وكاتباً، ومهندساً، وظلت علومه الطبية تسيطر على مهنة الطب طوال العهد الفرعوني، ويذكر هيردودت (ت 425 ق.م) أن المصريين افردوا بالتحنيط ونجحوا فيه، وأنهم عرفوا الطب معرفة جيدة وتخصصوا في فروعهم من تخصص في أمراض النساء، ومنهم من تخصص في أمراض العيون، ومنهم من تخصص بأمراض الرأس، وهناك من تخصص في الباطنية، وهناك من تخصص في طب الأسنان، وكل ذلك تدل عليه المخططات وهياكل العظام والأسنان الذهبية التي عثر عليها في أضرحتهم وكانوا أول من دون السجلات الطبية المكتوبة للمرضى.

وذكر أيضاً أنهم اتبعوا في علاجاتهم سبلا وقوانين عاقبوا بها كل من خالفها، وهذا العبارة تدل على خوف وحرص الأطباء المصريين القدماء على صحة العامة وعدم تساهلهم مع أي طبيب (يخطئ في حق أي مريض، وتنزيل أقصى العقوبة به من خلال هذه القوانين التي سنوها)²⁵².

وتؤكد الدراسات أن الأطباء المصريين القدماء كانوا ينصحون مرضاهم بالصيام لاعتقادهم بأن الإنسان يأكل أكثر من حاجته، ولذلك كان عليه أن يمتنع عن الطعام حيناً بعد حين ليصرف الفائض من غذائه.⁽²⁵³⁾

أما سمعة الطب في بلاد الرافدين فقد ذكرت بعض المراجع الأجنبية أنها لم تنل استحقاقها العادل، ربما بسبب تكرار الملاحظات المشوهة التي أوردها هيرودتس، والتي تدعي أن الأطباء لم يكونوا معروفين في بابل، في حين أن بعض المصادر تؤكد أن الرعاية الصحية والطبية في بلاد الرافدين كانت من أهم مظاهر حضارة بابل،⁽²⁵⁴⁾ حيث استفاد البابليون والآشوريون من الطب المصري في علاج مرضاهم، ومن إبداعاتهم للاستفادة من خبرات الأمة الصحية أنهم كانوا يضعون مرضاهم في الساحات العامة خارج مدنهم لغرض عرضهم على المارة، حتى يتصلوا بهم للاستفسار عن معضلتهم، فمن كان منهم قد أصيب بمثل هذا الداء وشفى منه أرشد هذا المصاب إلى استعمال نفس الوسائل والأدوية التي شفته.⁽²⁵⁵⁾

كما ترتبط الرعاية الصحية بجموراي ملك بابل، حيث يحتوي قانونه على أقدم قوائم عرفها الإنسان تتعلق بتكاليف ورسوم الخدمات المقدمة، والذي جمع بين الجودة وتكلفة الرعاية الصحية، وتضمن قانون حموراي بنوداً خاصة بالعقوبات المرتبطة بالأخطاء الطبية وكذا حالات التقصير والإهمال مما جعل الفرد يعرض عن العمل في

252 فريد توفيق نصيرات، إدارة المستشفيات، الطبعة الأولى، عمان الأردن، إثراء للنشر والتوزيع، 2008، ص17.

253 شوكت موفق الشطي، تاريخ الطب(السفر الأول)، الطبعة الأولى، دمشق، مطبعة الجامعة السورية 1956 م، ص 8-12.

254 Joan Otes. BABYLON, Germany, Interdruck Leipzig, 1994, p, 180.

255 حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الطبعة الأولى، العراق، جامعة الموصل، 1977م، ص30-32.

وكانت الرعاية الصحية والطبية من المعالم البارزة في حضارة الهند القديمة، من خلال المستشفيات التي بنيت آنذاك (السيكستا) والتي تعني معابد الشفاء وكانت تمتاز هذه الأماكن بنظافة بيئتها²⁵⁷ كما وجدت كتب طبية بقيت تزود العالم بالعلوم الطبية حتى نهاية القرون الوسطى، وكان من بين هذه الكتب كتاب الطبيب الشهير " شاراك " الذي عاش في حدود القرن الثاني الميلادي، وكان هذا الكتاب من المصادر المهمة للكثير من الأطباء العرب المسلمين مثل أبي بكر الرازي (ت 923 هـ / 1037 م) في كتابه الحاوي، أما الكتاب الهندي الثاني الذي ترجم إلى العربية فهو كتاب (سوسروتا)، وهو اسم المؤلف الذي صنفه (حوالي سنة 300 ق.م)، وهو أضخم كتاب هندي وصل إلى العرب، وفي كتاب (سوسروتا) معلومات قيمة عن الطب الهندي وما يستعمل من الأدوية والأدوات الجراحية في العلاج والسموم وكيفية صنع كل واحد منها، والتداوي بالوسائل الطبيعية، وفيه فصل خاص برعاية الحامل، وعمليات الولادة العسرة، وفصل في تغذية الطفل وتربيته. لقد عرف الهنود القدماء الكثير من الأمراض ودرسوا خصائصها ومراحلها السريرية، ومنها: حمى الملاريا وعلاقتها بالبعوض، ووباء الطاعون وعلاقته بالجرذان، واستعملوا التلقيح في معالجة الجدري، ومارسوا عمليات التجميل وترقيع الجلد، وعرفوا العملية القيصرية عند الولادة العسرة، واستعملوا لتوقيف نزف الدم في هذه العمليات الضغط والدهون الحارة والكي أحياناً.⁽²⁵⁸⁾

ومع مطلع الديانة المسيحية، بنيت بيوت للكهننة كمستشفيات صغير وقد ركزت هذه الأخيرة على الناحية الانسانية أكثر من تركيزها على الناحية العلاجية، وكانت تبعية هذه الأماكن الى الأديرة (*monastères*) في المناطق الريفية والى الكاتدرائيات (*cathédrales*) في المدن الكبيرة.²⁵⁹

ولا تختلف الرعاية الصحية والطبية عند اليونانيين عن الأمم القديمة الأخرى، حيث يتكون الطب عندهم من قسمين: قسم أسطوري يرتبط بالقوى الخارقة والشعوذة، وقسم واقعي موضوعي قائم على المعرفة، وتقول الأسطورة اليونانية أن (اسقيلوس)⁽²⁶⁰⁾ برع في الطب إلى درجة أن قدماء اليونان جعلوه إله الطب لديهم وقد استمر تأليه الأطباء وإقامة المعابد والهيكل لهم واللجوء إليها من أجل الشفاء وتعلق الناس بالسحر والشعوذة والكهننة ردحا طويلا من الزمن حتى جاء أبوقراط (460-377 ق.م) والذي كان أول من أعطى تفسيراً منطقياً للمرض، بناء على اختلال الأخلاط الأربعة: التراب، الماء، النار والهواء وكان أول من أقر أن المرض عارض

256 خالد بن سعد بن عبد العزيز بن سعيد، إدارة الجودة الشاملة: تطبيقات على القطاع الصحي، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1997، ص07.

257 آدموند هنتر، قصة الطب، سلسلة الإنجازات الحضارية، ترجمة محمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت 1980، ص14.

258 رحاب خضر عكاوي، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار المناهل للنشر، 1995 م، ص50.

259 حسان محمد نذير حرساني، إدارة المستشفيات، الرياض، معهد الإدارة العامة، 1990 ص23.

²⁶⁰ اسقيلوس تلميذ لهرمس مصر، وكان مسكنه أرض الشام، ومعنى اسمه البهاء والنور، والطب صناعة اسقيلوس، أنظر: ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (383 هـ / 994م)، طبقات الأطباء والحكماء تحقيق: فؤاد السيد، الطبعة الثانية، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، (1374 هـ / 1995م)، ص 11-12.

طبيعي، وليس من فعل الأرواح والشياطين، وأن ظواهره ليست إلا كرد فعل الجسم له، وأن عمل الطبيب هو معاونة قوى الجسم الدفاعية. هذا ويشهد التاريخ لأبوقراط أنه نادى بفصل الطب عن الدين والفلسفة، وتوجيه الطب نحو الاتجاه المنطقي.²⁶¹

أما الرعاية الصحية والطبية عند الفرس فقد كانت مزيجاً من الطب اليوناني والهندي والمصري، وقد دخل الطب اليوناني حسب بعض الروايات إلى بلاد فارس إثر زواج ابنة القيصر (أولينوس)، بملك الفرس (سابور)، إذ كان في حاشيتها عدد من الأطباء اليونانيين، فنقلوا الطب اليوناني إلى فارس، كما استقدم ملوك فارس الأطباء المصريين ليشاركوا في تعليم التحنيط،⁽²⁶²⁾ وقد برزت في فارس طبقة (الزرادشتية)، التي اهتمت بدراسة الطب ولعلت في صناعته، وتكونت من هذه الطبقة فئات ثلاث من المعالجين: الأولى كانت تعالج بالأدعية والصلاة، والثانية بالأغذية والعقاقير، والثالثة كانت تستعمل الأدوات الدقيقة في إجراء العمليات الجراحية.⁽²⁶³⁾

ولعل من أبرز وسائل العلاج عند العرب (الكي بالنار) - لاعتقادهم كغيرهم من الأمم السابقة - أن سبب الأمراض التي تصيب الإنسان هي الأرواح الشريرة، واستخدموه في علاج أمراض المفاصل (الروماتزم)، ووجع الرأس، والقروح، واستعملوا الكي للشوكة،⁽²⁶⁴⁾ كما استخدموا العديد من النباتات لعلاج بعض الأمراض والتي منها (الكمون)، حيث استعملوه في معالجة النزلات الصدرية، والريح في المعدة وللهضم، أما (الحلبة) فقد استخدموها في معالجة أمراض الصدر مثل الربو، والسعال، والبلغم،⁽²⁶⁵⁾ واستخدموا (القسط)⁽²⁶⁶⁾ بخوراً ودواء، وصنعوا (السعوط)⁽²⁶⁷⁾ واستعمل في مداواة (العذرة) وهو وجع يأخذ الطفل في حلقة، يهيج من الدم أو في (الخزم)، الذي هو بين الأنف والحلق.

وخلاصة الأمر أن الإنسان حاول منذ فجر تاريخه، التعرف على الأمراض والأدواء التي تفتك به، وحاول

²⁶¹ سليم بطرس جلدة، إدارة المستشفيات والمراكز الصحية، الطبعة الأولى، عمان الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع 2007، ص 17.

²⁶² أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية والطبية في القرن الأول، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2010-2011، ص 29.

²⁶³ عكاوي، رحاب خضر: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار المناهل للنشر، 1995، ص 44-46.

²⁶⁴ الشوكة: وهي حمرة تظهر في الوجه وغيره من الجسد، وقيل الشوكة داء كالطاعون، وكانوا يسكنون الشوكة بالرقى كذلك، أنظر:

جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، 1976هـ/ 1396م، ج 8، ص 392-393.

²⁶⁵ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (1162 هـ / 1749 م)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما أشتهر من الأحاديث على السنة الناس، تحقيق: أحمد الفلاش، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/ 1985م، ج 2، ص 217.

²⁶⁶ القسط: وهو عود يجاء به من الهند، فعرف لذلك بالقسط الهندي، ويقال له (الكست) وكشط، وفي رواية: كسط؛ وهو ' نهاية'، والأظفار: جنس من الطين لا واحد له من لفظه. وقيل: هو شيء من العطر أسود، أو قطعة منه شبيهة بالظفر، أنظر:

صديق حسن خان (1307هـ/ 1889م) الروضة الندية، تحقيق: علي حسين الحلبي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار ابن عفان، 1419هـ/

1999م، ج 2، ص 297.

²⁶⁷ السعوط: اسم الدواء الذي يصب في الأنف (مكون من دهن الخردل، ودهن البان، والقسط الهندي، والعود الهندي، والكافور) وذلك بأن يوضع الدواء في إناء يجعل فيه السعوط ويصب منه في الأنف ويقال للإناء المسعوط السعيط، ويستعمل السعوط من مختلف الدهون.

التصدي لها تارة بالسحر والشعوذة والكهانة، وتارة بالتجربة والبحث، فأبدع وقعد علوم الطب، وتعرف على أساليب معالجة الأمراض، بالعقاقير والجراحة، مستفيداً من تجارب أخيه الإنسان في مختلف أرجاء المعمورة، فاستفاد الصيني من الهندي والفارسي من اليوناني والهندي والعربي منهم جميعاً، ولكن رغم كل هذه الإنجازات بقي الطب والرعاية الصحية عند الأمم القديمة حبيسة الأسطورة والشعوذة، بل نجد أن الكهنة والعرافيين كانوا في معظم الحضارات القديمة زعماء الطب بلا منازع، إلى أن جاء الإسلام وحرر العقل من الأسطورة والخيال، وشجع العلم التجريبي وفتح أمام الجميع، لتخطوا الرعاية الصحية والطبية خطوات واسعة لخدمة صحة الإنسان وشكل بذلك ظهور المستشفيات صفحة مشرقة في تاريخ الطب العربي الاسلامي.²⁶⁸

ثانياً: التدابير الصحية الوقائية والعلاجية في الطب النبوي

من منطلق أن الوقاية خير من العلاج، فقد قدمت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية العديد من النصائح والتوجيهات للوقاية من الأمراض، والمحافظة على صحة الجسم، عن سلمى خادمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قالت: "ما كان أحد يشتكى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجعا في رأسه إلا قال احتجم ولا وجعا في رجليه إلا قال اخضبها"⁽²⁶⁹⁾

وقد تنوعت هذه التوجيهات فمنها ما هو متعلق بنوعية الطعام، ومنها ما هو متعلق بسلوك الإنسان الغذائي، ومنها ما يجذر من بعض الأطعمة والمشروبات، وكل ذلك بأسلوب مختصر ومركز، ولعل من أبرز هذه التدابير الوقائية والعلاجية ما يلي:

- 1- **الحث على طلب العلم:** قال صلى الله عليه وسلم: " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"⁽²⁷⁰⁾ و هو توجيه صريح للبحث والتقصي للأمراض، ومعرفة سببها، وطرق علاجها وبالتالي ربط الرعاية الصحية والطبية بالعلم والذي يعد نقله نوعية في الفكر الصحي العالمي آنذاك.⁽²⁷¹⁾
- 2- **الاعتدال في تناول الطعام:** من المعروف أن الغذاء يشكل أهمية كبيرة في حياة الإنسان، ولكن الإكثار منه يؤدي إلى الشعور بالكسل والخمول والرغبة الشديدة إلى النوم؛ لهذا حث الإسلام المسلم على الاعتدال وعدم الإسراف في تناول الطعام، قال تعالى: " وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"⁽²⁷²⁾

²⁶⁸ حوالم رحيمة، تطبيق إدارة الجودة الشاملة: دراسة تحليلية لمواقف الأطباء والمرضى بالمستشفى الجامعي لتلمسان، أطروحة دكتوراه في علوم التسيير، جامعة تلمسان الجزائر، 2009-2010، ص33.

²⁶⁹ الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت 1255 هـ / 1839م)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، الطبعة الأولى، بيروت، دار الجيل، 1393هـ / 1973م، ج9، ص: 100.

* يطلق في العادة على هذه التوجيهات اسم الطب النبوي وهو: كل ما ذكر في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الصحيحة فيما يتعلق بالطب سواء كان وقاية أو علاجاً، أنظر:

أكرم رضا، الطب النبوي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الوفاء للطباعة، 1427هـ / 2005م، ص 10-11.

²⁷⁰ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردية (256 هـ / 870م)، صحيح البخاري، تحقيق الدكتور: مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، بيروت، دار ابن كثير، 1407هـ / 1987م، ج5، ص 2151.

²⁷¹ حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، الطبعة الأولى، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1406هـ / 1986م، ص 15-17.

²⁷² سورة الأعراف، الآية 33

والدعوة إلى عدم الإسراف في تناول الطعام، يتطابق مع ما توصل إليه العلم الحديث من أضرار الإفراط في تناول الطعام، إذ ينشأ عنه العديد من الأمراض التي تهدد حياة الإنسان وتعرضه للهلاك مثل أمراض السكري، وارتفاع ضغط الدم، وتصلب الشرايين وغيرها من الأمراض.

3- الاهتمام بنوعية الغذاء: لقد وجه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الانتباه إلى أهمية نوعية الغذاء في الوقاية من الأمراض، وتقوية المناعة فوردت العديد من الآيات والأحاديث التي تؤكد على أهمية بعض الأطعمة الطبية والصحية والتي منها على سبيل المثال:

* العسل: أهمية العسل في علاج الأمراض والوقاية منها عظيمة، قال تعالى: "يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (273) وقد أكد صلى الله عليه وسلم أهمية العسل لجسم الإنسان حينما جاء النبي رجل قال: "أخي يشتكي بطنه، فقال صلى الله عليه وسلم: اسقه عسلا، ثم أتاه الثانية، فقال صلى الله عليه وسلم: اسقه عسلا، ثم أتاه الثالثة فقال صلى الله عليه وسلم: اسقه عسلا، فقال الرجل: فعلت، فقال صلى الله عليه وسلم: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا، فسقاه فبرئ" (274)

* التمر: يعد التمر من الأطعمة الغنية بالفيتامينات والألياف المفيدة للبدن، لذا نجد القرآن الكريم ينوه بذكره، ويؤكد على فوائده، وكذلك تعددت الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على قيمته الغذائية قال تعالى: "وَهَؤُلاءِ إِلَيْكَ بِيَدِ النَّحْلِ نُسَاقِطٌ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِئًا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا" وقال صلى الله عليه وسلم: "من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر" (275)

* الزيتون: وشجرة الزيتون هي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، قال تعالى: "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ" (276) وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بزيت الزيتون لما فيها من منافع، "كلوا الزيت، وادهنوا بالزيت، فإنه من شجرة مباركة" (277)

* الحبة السوداء: وقد ورد ذكرها في السنة النبوية المطهرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا من السام، قلت: وما السام؟ قال: الموت" (278)

* اللبن: قال تعالى: وقد أثبتت الدراسات ما للبن من فوائد عظيمة وخاصة اللبن الإبل، قال تعالى "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" (279) وورد في الحديث الصحيح

273 سورة النحل، الآية 69.

صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل، (10/146)، رقم (5684). 274

275 البخاري ومسلم، الجامع بين الصحيحين، (كتاب الطعام والشراب)، ص: 165، ر: 2310.

276 سورة النور، الآية 35.

277 محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، (ت 405 هـ/1014م)، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفی عبد القادر

عطا، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، (1410 هـ/1990م)، ج 2، ص 432، ر 3504.

278 صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: الحبة السوداء، (10/150)، رقم (5687).

279 سورة المؤمنون، الآية 21.

أن أناسا كان بهم سقم قالوا يا رسول الله آونا وأطعمنا فلما صحوا قالوا إن المدينة وخمة فأنزلهم الحرة في ذود له فقال اشربوا ألبانها...²⁸⁰

* التلبينة: التلبينة ورد ذكرها في السنة النبوية المطهرة، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء، ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت بِرُومَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِحَتْ، ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصَبَّتْ التَّلْبِينَةُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: كُنْ مِنْهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: التَّلْبِينَةُ مُجَمَّةٌ لِقُودِ الْمَرِيضِ، تَدَهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ"²⁸¹

* الخل: إن مادة الخل مطهرة للأطعمة، وتقضي على الجراثيم وتقتلها وتنقي الطعام منها. عن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم، فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به فجعل يأكل به ويقول: نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل"²⁸²

* الأترج: والأترجة ثمرة تنتمي لفصيلة الحمضيات (البرتقال والليمون) ولها فوائد عظيمة من القشر إلى الثمر وطيب الرائحة، عن أبي موسى الأشعري قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمن الذي يشرب الأترج كمثل الأترجة؛ ريحها طيب وطعمها طيب)"²⁸³

* الكمأة: وهذه تشبه البطاطس وهي غنية بالبروتينات، والنشويات، والسكريات، والدهون، مع بعض وجود الأحماض الأمينية اللازمة للجسم، وسلم أنه قال: "الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين"²⁸⁴

* الأذخر: والإذخر كما ورد في الحديث النبوي هو الحشيش النبات في الأرض ويكثر في مكة، ويسمى تين مكة أو حلفاء مكة، ويحتوي على زيت (السترونيلا)، ولهذا الزيت فوائد عظيمة.

* ماء زمزم: قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ماء زمزم لما شرب له"²⁸⁵ وقال صلى الله عليه وسلم أيضا: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم"²⁸⁶

هذا، ولم تغفل التوجيهات القرآنية والنبوية، التحذير من بعض الأطعمة التي لها آثار سلبية على الصحة البدنية والنفسية، والتي عبر عنها بالأطعمة المحرمة والتي من أبرزها:

* الخمر: قال تعالى في الخمر "يأئبها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

²⁸⁰ البخاري، صحيح البخاري، ج5، ر2153.

²⁸¹ البخاري ومسلم، الجامع بين الصحيحين، (كتاب الطعام والشراب)، ص164، ر2308. والتلبينة هي من التلبين: حساء يتخذ من ماء النخالة فيه لبن، وهو اسم كالتمتين. ويقول الأصمعي: التلبينة حساء يعمل من دقيق أو نخالة ويجعل فيها عسل، سميت تلبينة تشبيها باللبن لبياضها ورقتها.

²⁸² صحيح مسلم 3/1622، برقم: 2052.

²⁸³ صحيح البخاري، برقم: (5427)، واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم: (797).

²⁸⁴ صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الطب، باب: المن شفاء للعين، (10/172)، رقم (5708).

²⁸⁵ أخرجه ابن ماجه في (المناسك)، باب الشرب من زمزم: (3062)

²⁸⁶ الفاكهي: محمد بن إسحاق بن العباس أبو عبدالله (ت 275 هـ / 888 م)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: الدكتور عبدالملك عبدالله دهيش، الطبعة الثانية، بيروت، دار خضر، (1414هـ / 1994م)، ج2، ص4.

الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ²⁸⁷ وقال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ مُسْكِرٍ حَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ" ²⁸⁸

فالخمر أم الخبائث، لأنها تذهب العقل وتدفع الإنسان لإرتكاب المحرمات.

* بالإضافة الى الأطعمة المحرمة في الشريعة الإسلامية والتي تضمنتها الآية الكريمة في قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ" ²⁸⁹

وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام حرم أكل لحوم الحيوانات المفترسة والجارحة التي تتغذى على لحوم حيوانات أخرى، مثل السباع والقطط والكلاب، بالإضافة إلى الطيور الجارحة مثل الصقر والنسر والعقاب.

4- الصيام: من الكتاب والسنة نصوصا كثيرة تدعو للصيام لما يترتب عليه من فوائد وفوائد حيث قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" ⁽²⁹⁰⁾

أو كما جاء في الأثر "صوموا تصحوا"، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على صوم النوافل.

5- النظافة: تعد النظافة شعارا للحضارة الإسلامية، وقد شغلت حيزا لا بأس به من تعليقات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، حتى جعلت النظافة والطهارة من صفات المؤمنين قال تعالى: "ويحب المتطهرين" ⁽²⁹¹⁾ وأوجه النظافة كثيرة، منها نظافة البدن، نظافة الثوب، نظافة المسكن والطريق وغيرها.

6- الرياضة: من التدابير الوقائية التي دعا إليها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) رياضة البدن وتحريك الجسم وتحصيل اللياقة البدنية وجمال الشكل، والأصل الشرعي لهذا الاتجاه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" ⁽²⁹²⁾

وممارسة الرياضة في المفهوم الإسلامي يتم بطريقة منظمة لكل الأعمار من خلال الصلوات الخمس ففيها يتم تحريك جميع عضلات الجسم القابضة والباسطة، وتنشيط القلب والدورة الدموية.

ومن أبرز الرياضات التي حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ممارستها: الرماية، السباحة، المبارزة وركوب الخيل (الفروسية).

7- الحجر الصحي: هناك أحاديث نبوية صحيحة كثيرة تدعو إلى اتخاذ التدابير الوقائية تجاه العدوى والأمراض

سورة المائدة، الآية 90. ²⁸⁷

²⁸⁸ رواه مسلم في صحيحه، ج3، 1587.

²⁸⁹ سورة المائدة، الآية3.

²⁹⁰ سورة البقرة، الآية 183.

²⁹¹ سورة البقرة، الآية 222.

²⁹² مسلم، المرجع السابق، ج4، ر 2052.

المعدية، قال عليه الصلاة والسلام: "وفر من المجذوم كما تفر من الأسد"⁽²⁹³⁾

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعت الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأتم فيها فلا تخرجوا منها"²⁹⁴، وهذا حرص من الرسول صلى الله عليه وسلم لا تنتشر العدوى في البلاد المجاورة، وهذا ما يعمل به اليوم.

8- الصحة النفسية: لقد أكد الطب الحديث خطورة الأمراض النفسية على صحة الإنسان، فالقلق، والكتابة، والحزن والغضب، والاضطرابات النفسية لها آثار سيئة على أنسجة أعضاء الجسم وصحته، والإسلام لم يدع الإنسان تفتك به هذه الأمراض، بل أرشده إلى ما يحميه من شرها ودله على طرق علاجها فالتأمل لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام يجد أنه وضع برنامجاً نفسياً متكاملًا يحمي الإنسان المسلم من الاضطرابات وما يصاحبها من أمراض، ومن أبرز معالم هذا البرنامج: التركيز على تعميق الإيمان بالله، تجاوز الوسواس، الدعاء والذكر... فكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ"²⁹⁵

9- الرعاية الصحية والطبية للأطفال والنساء: إن مستقبل الأمم في صحة أطفالها، فالأمة التي تسعى إلى حماية أطفالها وتربيتهم على أسس صحية سليمة تساهم في صنع غد أفضل ينبض بالخير ويبدش بالأمل، وقد وضعت الشريعة الإسلامية تدابير وقائية لحماية الطفل حتى قبل أن يتكون وذلك من خلال الحرص على اختيار الأم الصالحة له.

ولعل المتأمل لحقوق الطفل التي كفلتها الشريعة الإسلامية في المجال الصحي، ينهر من تلك التفاصيل الصغيرة والكبيرة، حيث ابتدئ من ضمان حياته في بطن أمه، وكفالة حقوقه حتى قبل مولده، بالإضافة لحقه في الحضانة والحياة، والرضاعة، والختان، والرعاية والكفالة حتى لو ولد بطريق غير مشروع. ومن الآداب التي جاء بها الإسلام، وحث عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم رعاية المريض وبيان فضل عيادته، إذ اعتبرها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

بالإضافة إلى فئة المعوقين أو ذوو الاحتياجات الخاصة، حيث أهتم المصطفى صلى الله عليه وسلم بهذه الفئة اهتماماً خاصاً، بطمأننتهم، وتشجيعهم، وتخفيفهم، وإشعارهم بحب المجتمع لهم، حيث رفع عليه الصلاة والسلام من معنوياتهم من خلال أحاديثه التي تدعو إلى الصبر على ذلك البلاء، وربط قلب المعاق ببيان عظم الأجر والثواب.

وخلاصة الأمر أن التوجيهات النبوية الصحية والطبية تمثل الدعائم الرئيسة للنهضة الطبية والصحية التي

²⁹³ البخاري، صحيح البخاري، ج5، ر 2158.

²⁹⁴ البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص2163.

²⁹⁵ البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص1059.

شهدها العالم فيما بعد، إذ تعد هذه التوجيهات المعين الذي شرب منه الأطباء جيلا بعد جيل، والتي كانت بمثابة المفاتيح التي سهلت على العلماء سبل البحث والتقني في المجالات الصحية والطبية، فالعلم يؤكد كل يوم عظم تلك التوجيهات ومصدقيتها العلمية، فالأسس التي أرساها الطب النبوي تمثل نقطة تحول في تاريخ الطب والصحة العامة فانتقل الطب من الأسطورة والشعوذة والكهانة إلى العلم والتجربة.

ثالثا: طرق انتقال خدمات الطب الإسلامي إلى أوروبا.

مما لا شك فيه أن الحضارة العربية الإسلامية، التي شهدت ازدهارا واضحا إبان فترة القرون الوسطى، قد اضطلعت بدور هام وأساسي في تطور مختلف ميادين العلوم الذي شهدته أوروبا في فترة عصر النهضة. ولعل من أهم تلك العلوم هي العلوم الطبية. لقد كان تأثير الأطباء العرب في مجال تطور العلوم الطبية في أوروبا واضحا وجليا من خلال أمرين اثنين؛ أولاها تلك الترجمات التي قام بها الأطباء العرب للكتب الطبية القديمة الإغريقية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية والتي بدورها ترجمت ثانية إلى اللغة اللاتينية في بدايات عصر النهضة. وفي ذلك حفظ للتراث الهندي والفارسي والإغريقي من الضياع، فأكثر مؤلفات أبقراط وجالينوس في الطب مثلا كان الغرب قد تعرف عليها من خلال الترجمات اللاتينية المنقولة عن العربية. أما التأثير الآخر للأطباء العرب فقد كان من خلال ما أضافوه وما أبدعوه في مجال الطب وذلك من خلال الخبرات العملية التي كانوا قد اكتسبوها نتيجة ممارستهم للطب في البيمارستانات²⁹⁶ التي كانت منتشرة في كافة أرجاء البلاد الإسلامية.⁽²⁹⁷⁾

1- عن طريق الترجمة

اقتزنت بداية النهضة لأوروبا بترجمة كتب العربية إلى اللاتينية وذلك راجع للتخلف الذي كانت تعيشه أوروبا في القرن 12م مقارنة مع المسلمين. هذا التخلف جعلهم لا يولون اهتماما بشؤون العلم والثقافة. مما جعل دار الإسلام مصدرا للعلم والمعرفة للعديد من الأوروبيين كالكاهن الإفرنجي 'جيريرت' الذي يعتبر أول من عرف الأوروبيين بالأرقام العربية لشدة ما اشتهر به إثر مقامه بالمدن الإسلامية، تكاثر أمثال هذا الشخص مع امتداد احتكاك المسلمين بالأوروبيين فكثرت المترجمون ومن أهمهم جيرارد الكريموني (1114-1187) الذي قدم من إيطاليا إلى طليطلة لطلب العلم فتعلم العربية وترجم إلى اللاتينية ما يناهز 70 مؤلفا. في القرن 13 ازدادت حركة النقل إلى اللاتينية توسعا على يد ملك قشتالة الفونسو العاشر (1252-1284م) الذي لقب بالحكيم لاهتمامه بالترجمة وتحصيل العلم.

2- عن طريق الأندلس

تعتبر الأندلس من أهم الجسور التي ساعدت على انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا بحكم المدة الطويلة التي حكم فيها العرب والمسلمون هذه البلاد والتي تجاوزت ثمانية قرون. وتعد مدن طليطلة، قرطبة، قشتالة

²⁹⁶ البيمارستانات: لفظ فارسي يتكون من كلمتين هما (ببمار) وتعني مريض أو عليل و(ستان) وتعني دار، أي المكان الذي يعالج المريض.

²⁹⁷ Abdul Nasser Kaadan The Role of Arab Physicians on Medicine Development in Europe (2006)

وغرناطة من أهم المراكز الأندلسية التي كانت متشعبة بمظاهر الحضارة العربية الإسلامية، حيث كان العديد من الطلاب يفدون إليها للاطلاع على الكتب العربية خاصة المترجمة إلى اللاتينية والمنقولة عن اليونان والفرس. حيث اشتهرت في هذا المجال مدرستا برشلونة وطليطلة التي تم اتخاذها كنافذة تطل مباشرة على الحضارة العربية الإسلامية.

وقد كثفت سلطة الخلافة في الأندلس من رعايتها الصحية للمواطنين، فكان المسلم إذا ما مرض ذهب إلى أقرب مركز طبي للعلاج بينما كان المواطن المسيحي يذهب إلى الكنيسة عندما يمرض ينتظر الشفاء على يد الرهبان، أما بالنسبة إلى حكام الأقاليم الأوروبية فإذا ما احتاج أحدهم إلى المعالجة الطبية فإنه كان يشد الرحال ويسافر إلى العاصمة قرطبة ليكون تحت إشراف طبيب مسلم.

من جهة أخرى لعب التجار والمهاجرون الذين يتنقلون بين بلاد الأندلس ومختلف بقاع البلاد العربية الإسلامية دوراً مهماً في انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى باقي أنحاء أوروبا المسيحية. هذا دون أن ننسى الدور الذي كان يلعبه السفراء والمدجنين والموريسكيين واليهود في هذا المجال ووقوع بعض المدن الإسلامية تحت الحكم المسيحي تارة وعودتها للحكم الإسلامي تارة أخرى أو العكس²⁹⁸.

3- عن طريق صقلية وجنوب إيطاليا

لما استولى العرب على جزيرة صقلية في عهد الأغالبة (مدة 130 عاماً) عملوا على استغلال خيراتها المعدنية وأقاموا علاقات مودة مع سكانها الأصليين دون المس بعباداتهم وقوانينهم وحرمتهم الدينية، وكانت هذه المدة كافية لنشر مبادئ الحضارة العربية الإسلامية. وعندما استولى النورمانديون عليها خاصة في عهد الملك روجه (1113-1154) أبدى إعجابهم بالحضارة الإسلامية وتأثر بها بشكل كبير، خاصة من خلال ارتدائه لعباءة مكتوب عليها بالحروف العربية والخط الكوفي. ويعتبر كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) من أهم الكتب التي تحدثت عن وصف صقلية وجنوب إيطاليا. كما أن حركة الترجمة عرفت نشاطاً كبيراً من خلال ترجمة العديد من الكتب في مجال الطب والفلك، بالإضافة إلى الآثار التي تركها العرب في صقلية خاصة القصور والمساجد والمصانع والتي اتخذها النورمانديون فيما بعد قدوة لصناعتهم.

4- عن طريق الحروب الصليبية

شكلت الحروب الصليبية فرصة كبيرة لالتقاء الغرب الأوروبي بالشرق الإسلامي، فطيلة قرنين من الزمن التي بقي الصليبيون بالوطن العربي، اقتبسوا الكثير من أساليب الحياة والمعرفة في كافة المجالات، كما حصلوا على كثير من الكتب العربية، فساعد ذلك على ظهور روح البحث ودراسة الأقدمين ولآدابهم وفنونهم وعلومهم. كما أن الصدامات العسكرية بين المقاتلين المسلمين والمقاتلين الصليبيين مكنتهم من التعرف على العديد من الوسائل

²⁹⁸ توفيق سلطان البيوزبكي، الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا، ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 5، بغداد، 1431هـ / 2010م، ص119.

الحربية والخطط التي يستعملها العرب.

إذن كانت هذه هي أهم القنوات والجسور التي من خلالها تمكنت أوروبا من الاستفادة من الحضارة العربية الإسلامية في كافة مجالاتها: الأدبية، الفنية، العلمية، الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية²⁹⁹.

رابعاً: مظاهر استفادة أوروبا من الانجازات الصحية العربية الإسلامية.

لقد تطور الطب وشتى العلوم في العصر الذهبي للإسلام، وكتب بلغة عربية، والتي كانت لغة التواصل المشترك في زمن الحضارة الإسلامية. نشأ الطب الإسلامي كنتيجة للتفاعل الذي حدث بين الطب التقليدي العربي والمؤثرات الخارجية. كانت الترجمات الأولى للنصوص الطبية، عاملاً أساسياً في تكون الطب الإسلامي، وهكذا أفرز الإسلام في العصور الوسطى بعض أعظم الأطباء في التاريخ، الذين طوروا المستشفيات، ومارسوا الجراحة على نطاق واسع، بل ومارس النساء مهنتي التمريض والتطبيب.³⁰⁰

وقد انتشرت ممارسة مهنة الطب حتى أنه بلغ عدد الأطباء في بغداد وحدها في زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله أكثر من 860 طبيب، بل ظهرت مصنفات للأطباء بحسب الفترة الزمنية التي عاشوا فيها أو بحسب المناطق التي استوطنوها، ولعل أهمها كتابي "طبقات الأطباء والحكام" لابن جليل و"عيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

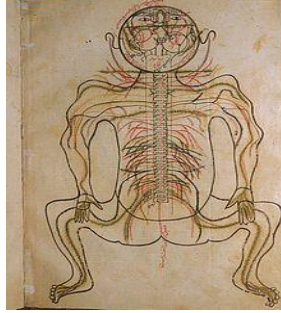
- كتب محمد بن زكريا الرازي كتابه "الحاوي في الطب" في القرن التاسع الميلادي، كما كان لكتبه الجامع الكبير شهرته الخاصة، لما سجله فيه الرازي من حالات سريرية عاجها الرازي بنفسه، وقدم فيه تسجيلات مفيدة جداً عن أمراض مختلفة. وقد نشره في 23 مجلد، كل منها تشرح أجزاء من الجسد أو أمراض معينة، صنفها بحسب فهمه. وقد ظلت معظم الجامعات الأوروبية تستخدم كتاب الحاوي كمرجع طبي هام حتى القرن السابع عشر.

- إن اكتشاف الدورة الدموية الصغرى من قبل الطبيب البريطاني وليام هارفي *William Harvey* وذلك عام 1628، كان أحد المحطات الهامة في تاريخ الطب. إلا أن الاكتشاف الأهم بالنسبة لتاريخ الطب عند العرب هو ما تم في بدايات القرن الماضي من إثبات أن ابن النفيس الدمشقي كان قد سبق هارفي في هذا الاكتشاف بنحو خمسة قرون. وبالرغم من أن هذا الرأي قد تم تبنيه من قبل العديد من الدوائر العلمية المعنية في الغرب وعلى رأسها جامعة أكسفورد البريطانية، إلا أن هناك بعض الجهات العلمية لازالت تتعamy عن إدراك هذه الحقيقة.

²⁹⁹ عبد المنعم الجمعي، دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية كنموذج لحوار الحضارات، العلاقات الثقافية الخارجية - وزارة الثقافة المصرية، 2003، ص14.

³⁰⁰ Bruno halioua, la médecine contemporaine occidentale doit beaucoup à la médecine arabo-islamique, le journal de la santé, France 5, le 10 mai 2010.

تشرح بدن إنسان لمنصور بن إلياس



- كما أصدر أيلي *Apley* كتاباً سنة 1982 يتحدث فيه عما أسماه براءد نظرية التجبير المتأخر الطبيب البريطاني جورج بركز *George Perkins*³⁰¹ لكن المطالع لكتب الطب التراثية التي ألفها الأطباء العرب الأوائل يجد أن هذه النظرية تحدت عنها الطبيب العربي الكبير ابن سينا في كتابه "القانون في الطب" وقبل البروفسور البريطاني جورج بركز بجوالي ألف عام.

- لقد لخص الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليك مكانة الزهراوي في تطور الطب العالمي بقوله "يعد أبو القاسم في تاريخ الطب أسمي تعبير عن علم الجراحة عند العرب، وهو أيضاً أكثر المراجع ذكراً عند الجراحين في العصر الوسيط". ثم قال: "وقد احتل الزهراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان هذا الثالوث العلمي".³⁰²

ولوكليك إنما يؤكد بهذا القول الأخير ما سبق أن رده ركسيوس *Riccius* في القرن الخامس عشر- الميلادي. ويعد لوكليك أحد المتخصصين في دراسة الزهراوي، فهو الذي ترجم إلى الفرنسية مقالته في الجراحة، وكتب عنه في كتابه "تاريخ الطب العربي" الذي أصدره عام 1876م نحو عشرين صفحة ضمنها معلومات مفيدة عن هذا الجراح الأندلسي ولاسيما عن الترجمات اللاتينية والعبرية لكتاب "التصريف". إن أول من ترجم المقالة الثلاثين لكتاب "التصريف" (وهي المتعلقة بالجراحة) هو جيرارد الكريموني الذي ترجمها إلى اللغة اللاتينية وذلك في مدينة طليطلة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وعن طريق هذه الترجمة اشتهر الزهراوي وأصبح معروفاً من قبل الأطباء الغربيين كأفضل جراحي العصور الوسطى. وتوجد في مكتبة مونبلييه في فرنسا ترجمة عبرية للمقالة الثلاثين مع رسوم للأدوات الجراحية. وفي القرن الرابع عشر نشر الجراح الفرنسي الشهير غي دي شولياك *Guy de Chauliac* كتابه المسمى "الجراحة الكبرى" باللغة

³⁰¹ تعني نظرية التجبير المتأخر باختصار وتبسيط شديدين أن هناك أنواعاً من الكسور ولأسباب عديدة يجب التريث عدة أيام قبل القيام بتجبيرها النهائي.

³⁰² ردينة عثمان يوسف، مرجع سابق، ص36.

اللاتينية وذلك عام 1363م. وقد استشهد بالزهراوي أكثر من مائتي مرة. وقد بقي هذا الكتاب أهم وأشهر مرجع في الجراحة لعدة قرون.

لقد تم لأول مرة طبع المقالة الثلاثين لكتاب "التصريف" في فيينا بإيطاليا عام 1471م. وقد تبعها طبعات أخرى في المدينة نفسها. ثم ظهرت حوالي عشرون طبعة أخرى في القرن السادس عشر في مدن أوروبية عديدة مثل طبعة بيترو أو جيلاتا عام 1531م. وفي عام 1778م قام جاهانيس نشانج بنشر النص العربي مع ترجمته باللاتينية في مجلدين في أكسفورد بإنكلترا. وفي عام 1861م قام الطبيب الفرنسي الشهير لوسيان لوكيريك بترجمة المقالة الثلاثين إلى اللغة الفرنسية.

هذا، ومن الإسهامات الطبية للزهراوي على سبيل المثال لا الحصر فكرته باللجوء لربط الأوعية الدموية كوسيلة لإيقاف النزف وذلك قبل الجراح الفرنسي *Ambroise Pare* بعدة قرون.

وعن جروح البطن وإصابة الأمعاء وطريقة إجراء خياطتها، أشار إلى ما يعرف اليوم بوضعية ترندلنبورغ *Trendelenburg* والتي كثيرا ما تستخدم اليوم في بعض الإجراءات الطبية... وغيرها الكثير والكثير جدا.

- كما اهتم الأطباء المسلمون أيضًا بما يعرف الآن "الطب الوقائي" المستوحى من الطب النبوي، وكانت لهم كتب تهتم بكيفية الحفاظ على الصحة، عن طريق الحفاظ على نظافة البيئة المحيطة وسبل التغذية السليمة، وممارسة الرياضة للحفاظ على الجسم. لعل أشهرها كتاب "تقويم الصحة" لابن بطلان الذي كانت له شعبيته في أوروبا في العصور الوسطى، وبه يدل على تأثير الثقافة العربية على بدايات الحضارة الأوروبية الحديثة.

- دون ابن أبي الأشعث ملاحظاته وتفسيراته عن وظائف المعدة بدقة على أسدحي، في كتابه "الغادي والمغتدي" عام 959، وبعد نحو 900 عام، أعاد وليم بومونت وصف تلك الوظائف، مما يجعل ابن أبي الأشعث رائدًا في علم وظائف الأعضاء التجريبي.

- هذا وقد أكد الدكتور أمير صالح رئيس الجمعية الأمريكية للعلوم التقليدية أن العلاج بالحجامة (المستوحى من الطب النبوي) يتم تدريسه في مناهج الطب في أمريكا كفرع مهم يسمونه *cupping therapy* كما أن هذا الأسلوب الطبي أثبت فعاليته الميدانية في معالجة عديد الأمراض المستعصية والتي عجز الطب الحديث عن علاجها كالسرطان، البدانة والسكري وغيرها...³⁰³

- ساعد تشريح ابن الهيثم للعين، على وضع أساس نظريته حول تكون الصورة، والتي شرحها عبر إسقاط أشعة الضوء خلال وسطين مختلفي الكثافة، أي أنه أثبت نظريته بالتجارب العملية وكان ذلك في القرن

³⁰³ المؤشرات الصحية للبدناء تتحسن مع الحجامة، روبرتاج تم بثه على قناة العربية بتاريخ 1 يونيو 2012

<http://www.alarabiya.net/articles/2012/06/01/217855.html>

الحادي عشر. وفي القرن التالي، ترجم كتابه "المناظر" إلى اللاتينية، وظل يدرّس في العالم الإسلامي وأوروبا، حتى القرن الـ17.

- كما استفاد الأوروبيون كثيراً من كتاب "تذكرة الكحالين" لصاحبه أبو القاسم عمار بن علي الموصللي الذي اشتهر بطب العيون.

مخطوطة عربية عن تشريح العين



- وقد ترجمت كتب اسحاق بن عمران، واسحاق بن سليمان وهما من أعلام مدرسة القيروان³⁰⁴، ومن أعلامها الكبار، أحمد بن الجزار وهو أشهرهم (توفي سنة 295 هـ/1005م) وقد كانت له منجزات طبية عظيمة مثل "اقتراح ضرورة فصل الطب عن الصيدلة بوصفها اختصاصيين مختلفين" كذلك ضرورة الفصل بين بقية الاختصاصات، واكتشافه أهمية الفصل كذلك بين الفكر الطبي والممارسة الطبية. وقد ترك ابن الجزار أكثر من (30) مؤلفاً في الطب بعضها حقق وطبع والبعض الآخر مازال مخطوطاً، ومن أبرزها كتابه "زاد المسافر" الذي يحتوي على أوصاف ممتازة لعدد كبير من الأمراض. لكن مما لا شك فيه أن قسماً مهماً من مؤلفاته عرفت طريقها إلى أوروبا. بالإضافة إلى كتب غيره من أعلام هذه المدرسة التي لعبت دوراً مؤثراً عرفت طريقها إلى أوروبا. بالإضافة إلى كتب غيره من أعلام هذه المدرسة التي لعبت دوراً مؤثراً على الطب الأوروبي لفترة تزيد على خمسة قرون.

- هذا، وجدير بالذكر أن إنشاء البيمارستونات (المستشفيات الإسلامية) كانت سمة متبعة في كل مكان بالدولة الإسلامية يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضى المعوزين، عكس المستشفيات في أوروبا وقتها، كانت عبارة عن غرف للضيافة ملحقة بالكنائس والأديرة لتقدم الطعام لعابري السبيل أو ملاحية للعجزة والعميان والمقعدين ولم تكن للتطبيب³⁰⁵. وكان يطلق علي هذه الغرف كلمة مضييفة *Hospital*، وهي مشتقة من كلمة ضيافة *Hospitality*، وكان أول مستشفى في الإسلام

³⁰⁴ ازدهرت في القرنين التاسع والعاشر في عهد دولة الأغلبية، وبلغ ازدهارها أنها أصبحت ثالث مدرسة طبية في العالم الإسلامي بعد مدرستي بغداد وقرطبة.

³⁰⁵ Journal la liberté, HISTOIRE VIVANTE : Ce que l'Occident doit au monde arabe, SUISSE, vendredi 18 fevrier2011, P08.

بناه الوليد بن عبد الملك سنة 706 م (88 هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية بإهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للإستشفاء والإتساع المكاني بعيدا عن المناطق السكنية. وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة 707 م بدمشق وأول مستشفى بني بإنجلترا في القرن 14م. بعد إنحسار الحروب الصليبية علي المشرق العربي، بعدما أخذ الصليبيون نظام المستشفيات الإسلامية و الطب العربي عن العرب، في حين أن أوروبا كانت تنظر إلى الجذام على إنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة 1313 م بحرق جميع المجذومين في النار، ولم يأت منتصف القرن العاشر م. حتى كان في قرطبة بالأندلس وحدها خمسون مستشفى وأكثر منها في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان علاوة المستشفيات المتنقلة والمستشفيات الميدانية لجرحي الحرب ، والمستشفيات التخصصية كمستشفيات الحميات التي كان بها معزل طبي لعزل الأمراض المعدية . وفيها كان يبرد الجو وتلطف الحرارة بنوافير المياه أو بالملاقف الهوائية. ومستشفيات للجراحة التي كان يشترط فيها الجو الجاف ليساعد على التئام الجروح. لكثرة حروب المسلمين فقد طوروا أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق وهو أسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقوه لأول مرة في الحرب الاهلية الأسبانية ثم عمم في الحرب العالمية الأولى بنتائج ممتازة. وهم أول من استعمل فتيلة الجرح لمنع التقيح الداخلي وأول من استعمل خيوطا من أمعاء الحيوان في الجراحة الداخلية. ومن أهم وسائل الغيار على الجروح التي أدخلها المسلمون استعمال عسل النحل(من الطب النبوي) والذي ثبت حديثا أن له خصائص واسعة في تطهير الجرح ومنع نمو البكتريا فيه.

- ومن جهود العلماء في الصيدلة وفي علم طب الأعشاب اكتشاف ألوف النباتات التي لم تكن معروفة وبينوا فوائدها. وكانت معظم الأعشاب تجرب على الحيوانات كالقروود أولا. وكان الطبيب المعالج هو الصيدلي أو العشاب في آن واحد. ثم انفصلت التخصصات وأصبح الطبيب يكتب الوصفات وتسمى (الأنغات). وكان يسلمها المريض إلى العشاب أو العطار الذي يركبها له. كما كان ابن البيطار (شيخ العطارين) يجوب العالم ومعه رسام يرسم له في كتبه النبات بالألوان في شتى أحواله واطواره ونموه. وقد اكتشف وحده 300 نبات طبي جديد شرحها في كتبه واستجلبها معه. وقد ألف كبار العشابين العديد من الكتب والموسوعات العلمية في هذا العلم والتي ترجمت إلى اللغة اللاتينية وانتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً ومن أهم هذه الكتب:

- هؤلاء صاحب كتاب "الصيدلة" للبيروني.
- كتاب "حقائق الأدوية" لأبي منصور موفق بن علي الهدوي وصف فيه قرابة الـ 600 دواء وكتاب الأدوية والأغذية.

- ومؤلفات ماسوية المارديني وكتاب "منافع الأدوية والأغذية" لابن البيطار الذي ظل يدرس في أوروبا عدة قرون.

تشریح للعین أجراه كمال الدين الفارسي في القرن الثالث عشر اعتماداً على أفكار ابن الهيثم



- وكانت ترجمة كتاب "القانون في الطب" لابن سينا إلى اللاتينية أحد أعظم أعمال الترجمة لكتب طبية، ثم طبع وانتشر في كامل أوروبا. ظل هذا الكتاب المرجع الأساسي في الطب في أوروبا، حتى بداية العصر الحديث³⁰⁶، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحدهما، طبع الكتاب أكثر من 35 مرة. لاحظ ابن سينا ظاهرة نقل العدوى لبعض الأمراض المعدية التي تنتقل عبر الهواء من قبل شخص مريض، وشرح كيفية اختبار بعض الأمراض الجديدة حينها. وقد كتب ابن سينا أيضًا كتاب الشفاء، والذي كان بمثابة موسوعة عامة في العلوم والفلسفة، وقد حظي هذا الكتاب أيضًا بشعبية في أوروبا.

نسخة لاتينية من كتاب القانون في الطب ترجع لعام 1484، وهي محفوظة في مكتبة نيكسون الطبية التاريخية التابعة لجامعة تكساس للعلوم الصحية في سان أنطونيو



- كتب أبو بكر الرازي كتاب الحاوي في الطب، والذي وصف فيه بعناية بل وميز بين مرضي الحصبة والجذري، وقد كان لهذا الكتاب أيضًا أثره في أوروبا.

³⁰⁶ Journal la liberté, HISTOIRE VIVANTE, Op.Cit, p08.

- هذا وتجدر الإشارة الى أن المسلمين هم أول من ابتكر نظام الإجازة في الطب كغيره من العلوم ولا بد للممارسة المهنة من اجتياز الامتحان. ووضعت آداب وأخلاقيات للمهنة. وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها. وكان في سنة (833 م- 218 هـ) في عهد الخليفة المأمون قد صدر أول قانون للرخص الصيدلية وبموجبه يجري امتحان للصيدلاني ثم يعطي بموجبه مرسوم يجيز له العمل وأخضع القانون الصيدليات للحسبة (التفتيش).

- وبعد كتاب "أدب الطبيب" للرهاوي أقدم الأعمال العربية في مجال أخلاقيات الطب الذي اعتمد فيه على أعمال أبقراط وجالينوس، وقد وصف الرهاوي في كتابه الأطباء بأنهم "رعاة الروح والجسد"، وكتب فيه عشرين فصلاً في مختلف العناوين المرتبطة بالأخلاقيات الطبية. وكان الخليفة المأمون قد كلف الرازي شيخ الأطباء بتأليف كتاب بعنوان "أخلاق الطبيب" ليدرس للطلبة، وقد شرح فيه العلاقة الانسانية بين الأطباء والمرضى وبينهم وبين بعضهم كما ضمنه نصائح للمرضى في تعاملهم مع الطبيب.

خاتمة

من هنا يتبين لنا أن الحضارة العربية الإسلامية قد أسهمت في وضع أساس الحضارات الحديثة بنصيب موفور وأن فضلها عليها واضح غير منكور، وذلك لأن:

- الإسلام أحدث انقلاباً في الفكر الطبي والصحي في العالم، فنقله من الشعوذة والأسطورة والسحر إلى العلم والتجربة والمنطق، مما أسهم في تقدم الطب خطوات واسعة.

- المتأمل لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بشأن الصحة والطب يجد أنها وضعت الركائز السليمة والصحيحة للرعاية الصحية والطبية الشاملة.

لقد كان تأثير الأطباء العرب والمسلمين في مجال تطور العلوم الطبية في أوروبا واضحاً وجلياً من خلال أمرين اثنين؛ أولهما تلك الترجمات التي قام بها الأطباء العرب للكتب الطبية القديمة الإغريقية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية والتي بدورها ترجمت ثانية إلى اللغة اللاتينية في بدايات عصر النهضة. ومما لا لبس فيه أن في ذلك حفظ للتراث الهندي والفارسي والإغريقي من الضياع، فأكثر مؤلفات أبقراط وجالينوس في الطب مثلاً كان الغرب قد تعرف عليها من خلال الترجمات اللاتينية المنقولة عن العربية. أما التأثير الآخر للأطباء العرب فقد كان من خلال ما أضافوه وما أبدعوه في مجال الطب وذلك من خلال الخبرات العملية التي كانوا قد اكتسبوها نتيجة لممارستهم للطب في البيمارستانات التي كانت منتشرة في كافة أرجاء البلاد الإسلامية.

كما لا بد أن نشير إلى شهادات الكثير من المنصفين من المستشرقين الغربيين الذين درسوا العلوم عند العرب، فأعجبوا واندعشوا بما أنجزه هؤلاء العلماء، بل اعتبروا أن ما تحقق في تلك الفترة كان بمثابة ثورة علمية حقيقية وبكل المقاييس. ولعل من أهم هؤلاء المستشرقين والكتاب: جونسالك الألماني في كتابه "الإسلام قوة عالمية

متحركة" ، وغوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" الألمانية زيكريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب". حيث تقول في معرض حديثها عن مساهمات العرب في تطوير الجراحة: "فهذا الفرع بالذات يدين للعرب بتقدمه وصعوده المفاجئ من مرتبة المهن الحقيرة الدنسة التي تكاد تكون بمنزلة مهنة الجلادين والجزارين إلى القمة التي عرفها على أيدي العرب، فإلى العرب وحدهم يعود فضل رفع هذا الفن العظيم إلى المستوى الذي يستحقه، وإليهم وحدهم يرجع فضل بقاء هذا العلم".

وريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق الذى أكد ما قاله ول ديوانت من أن الرجال العظام الذين حملوا عبء النهضة الأوروبية استطاعوا ذلك لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة المسلمين من أمثال ابن سينا والبيروني والرازي وجابر بن حيان وغيرهم.

وارتأينا في هذا المقام أن نختتم هذا البحث بهذه الرسالة الهادفة من احتفال أقيم في جامعة برلين بألمانيا، أشار الدكتور غريسيب رئيس فرع الطب فيها إلى فضل العلماء المسلمين على الإنسانية في علم الطب فقال: أيها الطلاب المسلمون، والآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوروبيين يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم. فما هذه العلوم إلا امتدادا لعلوم آباءكم، وشرحا لمعارفهم ونظرياتهم، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر، طالما أن كتابكم المقدس، عنوان نهضتكم، ما زال موجوداً بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل. ففي قرآنكم علم وثقافة، ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا إن كنا في الماضي طلابكم.

الباحث نصر محمد سعيد البلعاوي

طالب دكتوراة قانون

كلية الشريعة والقانون / جامعة العلوم الإسلامية العالمية .

الملخص

من مزايا الشريعة السمحة أنها جاءت بأحكام سامية أغلقت منافذ الخلل، فالناس تحت مظلة الشريعة السمحة يتمتعون بكامل حريتهم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} فهذه الآية وغيرها الكثير من الآيات تقرر وحدة الأصل للإنسان مما يقتضي عدم التمايز، ومن مظاهر تحريم الاسترقاق في الشريعة التحريم بكافة صور ومظاهر الاتجار بالبشر فالإنسان مخلوق مكرم لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}.

فظاهرة الاتجار بالبشر محرمة في الإسلام وهي من كبائر الإثم والفواحش. والإسلام يعمل بأحكامه ومبادئه على رفع الظلم والقهر عن الإنسان وإقامة العدل والكرامة والحرية للإنسان من حيث هو إنسان. وترتيباً على هذا تسعى المنظمات الدولية من خلال الاتفاقيات الدولية وحث الدول على سن التشريعات للحد من هذه الظاهرة، وقد تناولت هذه الدراسة الحديث عن مفهوم الاتجار بالبشر والتطور التاريخي لمشكلة الاتجار بالبشر، ثم الحديث عن مرجعية مكافحة الاتجار بالبشر في الرؤية الفقهية الإسلامية والقانونية وصور الاتجار بالبشر وأسبابه وآثاره وتحريم الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية. وتوصلت الدراسة إلى أن الشريعة الإسلامية عملت على تجفيف كل منابع الرق والعبودية، كما تسعى المنظمات الدولية إلى مكافحة هذه الظاهرة. وتوصي الدراسة بضرورة الالتزام بمبادئ الشريعة السمحة للقضاء على هذه الجريمة وسن القوانين على المستوى المحلي والدولي التي تكافح هذه الجريمة وتفعيل أساليب الحماية من هذه الجريمة.

Abstract

Of the advantages of Sharee'a they came to the provisions Semitic closed bugs outlets, people under the umbrella of Sharee'a enjoy full freedom he says: {O people, we created you from a male and a female, and made you into nations and tribes so that the sight of God that God knows expert} This verse and many others verses decide the parent unit of the human person which requires a lack of differentiation, and the manifestations of the prohibition of slavery in the law prohibition of all images and manifestations of human trafficking Man is a creature Makram says: {We have honored the sons of Adam.}

The phenomenon of human trafficking are prohibited in Islam and is a major sin and immorality. Islam and its provisions and principles of working to lift the injustice and oppression for the rights and the administration of justice, dignity and freedom of man from where he is a human

being. Consequently the international organizations seeking through international conventions and urged States to enact legislation to reduce this phenomenon, this study has addressed the talk about the concept of human trafficking and historical development of the problem of trafficking in human beings, and then talk about the reference to combat human trafficking in the vision of Islamic jurisprudence, legal and images of human trafficking The causes and effects and the prohibition of human trafficking in Islamic law and man-made laws. The study concluded that Islamic law worked on drying all the headwaters of slavery, servitude, and international organizations seeking to combat this phenomenon. The study recommends the need to adhere to the principles of Sharia tolerant to eliminate this crime and enact laws at the local and international level that are struggling this crime and activate the protection methods of this crime.

المقدمة:

الحمد لله القوي المتين القاهر الظاهر الملك الحق المبين لا يخفى على سمعه خفي الأنين ولا يغرب عن بصره حركات الجنين ذل لكبريائه جبابرة السلاطين، أحمده حمد الشاكرين وأسأله معونة الصابرين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الأولين والآخرين وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى على العالمين. قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء: 70).

إن قضية الاتجار بالبشر قضية واقعية بين الأمم ولا سيما في أيامنا هذه، وقد ظهرت هذه الظاهرة وانتشرت في العالم انتشاراً واسعاً حتى أصبحت هذه الظاهرة لها وقعها في المجتمعات المختلفة وأصبحت تشكل خطراً داهماً للكثير من الدول.

فالإتجار بالبشر تجارة محرمة وتشكل جريمة نكراء وقد بلغت قيمة التجارة السنوية له حوالي (32) مليار دولار في الأعوام الأخيرة وبالتالي فهي تعد ثالث أكبر تجارة بعد تجارة المخدرات والسلاح، ويصل عدد الأشخاص الذين يتم الاتجار بهم حوالي (3 ملايين) شخص وغالبية هؤلاء هم من الأطفال والنساء ولذلك تعد هذه الظاهرة من أبرز التحديات التي تواجه القرن الحالي حتى باتت هذه الجريمة تؤرق الضمير العالمي في هذه الآونة والتي تعد انتهاكاً صارخاً لحقوق الإنسان وأبسط حرياته الأساسية.

وأصبحت هذه الظاهرة دولية غير مقتصرة على دولة بعينها ولها أشكال وأنماط مختلفة من دولة إلى أخرى وأن هذه الأشكال تتطور في ظل ثورة الاتصالات وهي جريمة منظمة قد تتم على المستوى الدولي أو المحلي.

وكانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة على أساس الدعوة لحرية الإنسان والقضاء على عبودية البشر للبشر، فكان من أبرز دلائل تكريم الإنسان الحرية الإنسانية فعمل صلى الله عليه وسلم على تضييق منابع الاسترقاق ووسع منافذ التحرير فعمل على الترغيب بتحرير العبيد يقول المستشرق الألماني (آدم متر) أن العتق يعد مبدأ من مبادئ الإسلام ويضيف كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض

(العبيد)⁽³⁰⁷⁾.

ويقول المفكر نظمي لوقا (أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل العبدان والأحايش سواسية وملوك قريش)⁽³⁰⁸⁾.

فوجد العبيد الكرامة والحرية في تعاليم الإسلام الإصلاحية وجعل الإسلام منهم سادات المسلمين ووقفت قيادات قريش الاستقرائية في درجة الدعوة التي تنو إلى تحرير العبيد وتنادي بالمساواة التامة بينهم وبين السادة.

وترتيباً على كل ما تقدم تسعى المنظمات الدولية للحد من هذه الظاهرة وذلك من خلال الاتفاقيات الدولية وحث الدول على سن التشريعات التي تجرم الوقائع المرتكبة لصور الاتجار بالبشر.

أهمية البحث:

- 1- تسليط الضوء على جريمة الاتجار بالبشر.
- 2- الإسهام في نشر المعرفة العامة عن طريق التعريف بهذه الجريمة والبحث في سبل الوقاية منها ومنعها والمعاقبة عليها.

إشكالية البحث:

تتلخص إشكالية هذه الدراسة فيما يلي:

- 1- ماهية الاتجار بالبشر ومدى عناية الإسلام والتشريعات الدولية بها.
- 2- أسباب الاتجار بالبشر وأشكاله ونتائجه.
- 3- مدى عناية الإسلام والمجتمع الدولي بجريمة الاتجار بالبشر.
- 4- الوسائل المتبعة لمكافحة الاتجار بالبشر وسبل تطويرها.

الدراسات السابقة :

تعرض الباحثون لموضوع (الاتجار بالبشر) في العديد من الدراسات ولكن الباحث لم يقف على دراسة توضح أو تبين الحديث عن (جريمة الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية) ومن تلك الدراسات :

1. ضحايا التهريب البشري من الأطفال للباحث خالد سليم الحربي، جامعة نايف للعلوم الأمنية، 2011، تحدث فيها الباحث عن ضحايا الاتجار بالأطفال والعقوبات المترتبة على ذلك.
2. الاتجار بالبشر بين الواقع والقانون، الدكتور هشام عبد العزيز مبارك، مركز الأعلام الأمني، البحرين، 2010، تحدث فيه الباحث عن الاتجار بالبشر في القانون البحريني.

(307) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، القاهرة، 290/1.

(308) لوقا، نظمي محمد، الرسالة والرسول، دار الكتب العلمية، بيروت، ص185.

3. الاتجار بالاشخاص، الدكتور أحمد أبو الوفا، الندوة الإقليمية التي ينظمها برنامج اللام المتحددة الإنمائي حول الجرائم المنظمة والعبارة للحدود في القاهرة، 2007، تحدث فيها الباحث عن الاتجار بالبشر واجهود الدولية في مكافحة هذه الظاهرة.

4. جريمة الاتجار بالاشخاص والجهود المصرية لمكافحتها والقضاء عليها، للباحث هاني فتحي جورجي، الندوة الإقليمية التي ينظمها برنامج اللام المتحددة الإنمائي حول الجرائم المنظمة والعبارة للحدود في القاهرة، 2007، تحدث فيه الباحث عن الجهود المصرية في مكافحة الاتجار بالبشر.

منهج البحث :

تقوم هذه الدراسة على:

- المنهج الوصفي؛ القائم على دراسة موضوع الاتجار بالبشر فأول خطوة كانت الدأب على جمع معلومات وافية ودقيقة عن كل ما يتعلق بموضوع الاتجار بالبشر ومن ثم مناقشتها.
- المنهج الاستقرائي؛ وذلك بتتبع مفردات الموضوع من مصادرها وجمعها من مظانها.
- المنهج المقارن؛ والقائم على الدراسة المقارنة بين محاربة الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية والقانون.
- المنهج التحليلي؛ القائم على صياغة ما تم التوصل إليه حول موضوع محاربة الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية والقانون وتقديمه للدارس لتكتمل عنده الصورة عن هذا الموضوع.

المبحث الأول:

ماهية الاتجار بالبشر

المطلب الأول: مفهوم الاتجار بالبشر:

الاتجار في اللغة: ممارسة البيع والشراء تقول اتجر اتجاراً والتجارة حرفة التاجر والبشر يطلق على الإنسان المفرد وغيره⁽³⁰⁹⁾.

والاتجار بالبشر يعني: تجنيد أشخاص أو نقلهم أو تنقيلمهم أو إيوائهم أو استقبالهم بواسطة التهديد بالقوة أو استعمالها أو غير ذلك من أشكال القسر. أو الاختطاف أو الاحتيال أو الخداع أو إساءة استعمال السلطة أو إساءة استغلال أو تلقي مبالغ مالية أو مزايا لنيل موافقة شخص له سيطرة على شخص آخر لغرض استغلال ويشمل الاستغلال كحد أدنى استغلال دعارة الغير أو سائر أشكال الاستغلال الجنسي أو السخرة أو الممارسات الشبيهة بالرق أو الاستعباد أو نزع الأعضاء⁽³¹⁰⁾.

(309) ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، 450/1.

(310) <http://www.child-trafficking.info/upload/files/13043390265198.pdf>.

ويقصد بقضية الاتجار بالبشر في الاصطلاح القانوني: (كل تصرف بطريق القوة الخشنة أو الناعمة يقع على إنسان بقصد استغلال جسده فيما يمس حياته أو حريته أو كرامته في داخل البلاد أو عبر الحدود الوطنية لتلك البلاد)⁽³¹¹⁾.

المطلب الثاني: التطور التاريخي لمشكلة الاتجار بالبشر:

مشكلة الاتجار بالبشر ليست وليدة الحاضر حيث ظهر هذا المصطلح مصطلح الاتجار بالبشر - قديماً فهي مشكلة ضاربة في التاريخ وحتى يتم فهم هذه الظاهرة بشكل صحيح لا بد من الوقوف على تطورها التاريخي. ومن المعلوم أنه وفي عصور ما قبل الميلاد سادت قاعدة: (القوي يسيطر على الضعيف)، ومن هنا بدأت جذور المشكلة وانقسمت البشرية إلى سادة وعبيد وظهرت مع هذا الانقسام أشبع صور الاستغلال للإنسان، وعندما جاءت الديانة المسيحية أقرت الرق الذي أقرته اليهودية من قبل، وأكد القديسون على شرعية خدمة الرقيق لسادتهم، كما أكد هؤلاء على أن الطبيعة جعلت بعض الناس أرقاء وبعضهم سادة وبهذا أصبحت هذه المشكلة شرعية في الكتب السماوية المحرفة على أيدي القديسين، ومع ظهور حركة الاستكشاف التي عمت العالم في القرنين السادس والسابع عشر ظهرت حركة القنص الآدمي على سواحل القارات والمناطق المكتشفة⁽³¹²⁾، ومن هنا عرف العالم ظاهرة الاتجار بالبشر وذلك من خلال تجارة الرقيق، وكان لبريطانيا دور كبير في تعزيز هذه المشكلة والتاريخ مليء بالشواهد على ذلك فلقد بلغت هذه التجارة أوجها قبل حرب الاستقلال الأمريكية وكانت قواعدها في لندن وليفرول وبروستول ولقد كانت الملكة إليزابيث الأولى التي حكمت من (1558-1603) تشارك فيها، حيث عملت على إعارة التجار بعض أساطيلها لجلب الرقيق وكانت شركة لجون هوكنز والذي عرف بأكبر نخاس في التاريخ حيث رفعته الملكة إلى مرتبة النبلاء، إعجاباً بطولته، ولقد حاولت حكومات إنجلترا من إضفاء الصبغة الشرعية على هذه التجارة فطلبت من رجال الدين مبرراً لهذه التجارة فأسعفوها بنصوص التوراة، وبالتالي كان استعباد الزنوج عند الأوروبيين مباحاً وكان الرقيق يعاملون بشدة تودي بحياتهم أحياناً⁽³¹³⁾، وعلى الرغم من ذلك فقد وضعت قوانين للرقيق ولكنها كانت في أغلب الأحيان ضدهم ومنها قانون (بترونيا) الذي ينص على: (يحرم على السادة إلزام العبيد بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضي)⁽³¹⁴⁾. ولقد انتشرت آفة تجارة العبيد وصور استغلال البشر في أمريكا وفي الكثير من دول أوروبا الغربية واستمر هذا الحال حتى ظهرت حركات مكافحة الاستعباد واستغلال البشر بشتى أنواعه خلال القرون الثلاث الماضية وتزايدت هذه المشكلة في الخفاء حتى أصبحت أسوأ حال مما هي عليه في العصور الوسطى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في أيامنا الحالية على الرغم من كثرة التشريعات ومبادئ العدالة والحرية والمساواة التي تكفلها القانون. ونخلص إلى القول أن الدول الأوروبية وأمريكا هم منشأ هذه المشكلة وذلك بسبب ممارستهم

(311) Harith Faruqi: Faruqi's Law Dictionary, Libareirie, Duliban, Beirut, 2006, P.55.

(312) ارتيمة، وجدان سليمان، الأحكام العامة لجرائم الاتجار بالبشر - دراسة مقارنة، -، عمان، دار الثقافة، 2014.

(313) Edward Wsaid: Orientalism, Vintage Books, 25th Ed, New York, 2003, P. 77.

(314) الأصفر، أحمد عبدالعزيز، وآخرون، مكافحة الهجرة غير المشروعة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2010.

الخاطئة، في حين جاء الإسلام بتعاليمه السمحة ليجتث الأفكار التي تعمل على تعزيز الرق والاستعباد⁽³¹⁵⁾.

المطلب الثالث: مرجعية مكافحة الاتجار بالبشر في الرؤية الفقهية الإسلامية والقانونية:

الفرع الأول: المرجعية الإسلامية في مكافحة الاتجار بالبشر:

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية جاءت لحماية مقاصد الإنسان على اختلاف درجاتها ومنها (الدين والنفس والعقل والعرض والمال) وذلك لعموم الآيات القرآنية ومنها قوله تعالى: **{وَلَا تُقْلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** (البقرة: 195)، وقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** (النساء: 29)، وقوله (ص): "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد"⁽³¹⁶⁾.

ومن درجاتها كذلك الأهل والأقارب لقوله تعالى: **{وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}** (الأفقال: 75)، ثم كان من درجاتها أولئك الضعفاء والمهمشين لعموم الآيات ومنها قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّغْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** (المعارج: 24-25). ومن حيث تحرير الوسائل فلها حكم المقاصد والغاية لا تبرر الوسيلة وعليه فليس للمسلم الحق في إيقاع الظلم على الآخرين أو الاحتيال أو الخداع أو الغش، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلًّا وَمَنْ يَغُلًّا يَأْتِ بِمَا غَلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** (آل عمران: 161)، وكذلك فإن التكليف وإبرام العقود منوطان بالإرادة بالجملة وتحرير الإرادة يتعلق بالتكليف وإبرام العقود أما الضمان فالعبرة فيه بالعدوان⁽³¹⁷⁾.

الفرع الثاني: المرجعية القانونية لمكافحة الاتجار بالبشر:

كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام 1948 هو بداية الانطلاق للإعلان عن مكافحة الاتجار بالبشر⁽³¹⁸⁾ حيث جاء في نص المادة (1) منه: (يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق) ونصت المادة (2) فيه على: (لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أي تمييز)، ونصت المادة (3) على: (لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه). وبناءً على ذلك قامت العديد من الدول بوضع التشريعات والاستراتيجيات الوطنية لمكافحة هذه الظاهرة.

وعليه فإن الشريعة الإسلامية اعتمدت في مكافحة هذه الجريمة وهي جريمة متعددة الأشكال والصور على الدين حيث توعدت الشريعة المجرم بالعقاب الأخروي وعلى القضاء من خلال زجره بالعقوبة المنصوص عليها ليكون ذلك زاجراً للآخرين، أما القانون فيتضح أنه جمع كل جرائم الاتجار بالبشر بجريمة وهذه هي (الاتجار بالبشر).

المبحث الثاني:

<http://www.xzx4ever.com/vb/showthread-php?t=7736>. (315)

رواه أبو داود، حديث رقم 5156، حديث صحيح. (316)

الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت 157/24. (317)

المسودة الأولية لبروتوكول الأمم المتحدة لمنع وقمع معاقبة الإتجار في الأشخاص وبخاصة النساء والأطفال، 2000. (318)

صور الاتجار بالبشر وأسبابه وآثاره

المطلب الأول: صور الاتجار بالبشر:

للاتجار بالبشر العديد من الصور والتي عرفتها المجتمعات البشرية على مر التاريخ ومن أبرز هذه الصور:
أولاً: الدعارة⁽³¹⁹⁾:

وهي من أبرز صور المتاجرة بالنساء وتظهر بصور مختلفة:

1- شبكات الفجور والبغاء حيث يتم من خلال هذه الشبكات إيهاام الفتيات في الحصول على الأعمال المناسبة مقابل أجور مالية باهضة ليم بعد ذلك تسفيرهن بطريقة غير شرعية إلى دول تقوم باستغلالهن لممارسة البغاء.

2- الإثارة عبر شبكات الانترنت الإباحية حيث يتم تصوير النساء في مشاهد خليعة وإباحية.

3- السياحة الجنسية إذ اعتبرت العديد من الدول السياحة الجنسية مصدر من مصادر دخلها القومي.

ثانياً: استغلال العمالة الوافدة: وذلك من خلال تشغيل العمال بالأعمال الشاقة والصعبة جداً وتعرض هؤلاء العمال للمعاملة السيئة وعدم حصولهم على حقوقهم ومنعهم من العودة إلى أوطانهم فضلاً عن استعبادهم⁽³²⁰⁾.

ثالثاً: تجارة الأعضاء البشرية وتتم هذه التجارة تحت وطأة الحاجة للمال حيث يمارس العاملون بهذه التجارة أحد أهم صورها والتي توفر لهم المال الوفير وهي تجارة الأعضاء البشرية والتي تتم بسهولة ويسر تحت وطأة التهديد أو الحاجة⁽³²¹⁾.

رابعاً: استغلال الأطفال⁽³²²⁾:

وذلك من خلال:

- 1- الاستغلال الجنسي لهؤلاء الأطفال وذلك بعد التحايل عليهم.
- 2- التسول حيث يتم استعمال الأطفال في الأماكن العامة بعد القيام بتشويه صورهم وقطع أطرافهم والباسهم الثياب الرثة.
- 3- التجنيد حيث يتم تجنيد الأطفال في صفوف الجيش ليم استغلالهم في الكشف عن حقول الألغام.
- 4- استغلالهم للعمل في المصانع بأقل الأجور.
- 5- العمل القسري بهدف الحصول على لقمة العيش.

Gane Mayer: The Dark Side, Doubleday, New York, 2008, P. 79-80. (319)

<http://www.manaralyemen.com/news.4746.html>. (320)

cato/topics/64598/posts/127474. (321)

PatrickBurnett & Fairoze Manji: from the slave Trade to "Free" trade: How Trade Under (322)

Mines democracy and Justice in Africa, Fahamu Net Work for Social Justice. Oxford/ Nairobi, 2007.

6- استخدامهم كقطع غيار بشري حيث يتم بيع أعضائهم بعد اختطافهم ولاحظ لهم إلا أقل الأموال.

المطلب الثاني: الفئات المستهدفة من الاتجار بالبشر⁽³²³⁾:

الأطفال والنساء والعمال هم الفئات المستهدفة في عملية الاتجار بالبشر، وبالسؤال لماذا هذه الفئات هي المستهدفة بعينها؟ هل السبب: الجوع، الفقر، المرض! ونجد أن تلك الأسباب مجتمعة هي الأسباب الحقيقية لنمو هذه الظاهرة والدوافع وراء ذلك إضافة إلى السلوك الذي فرضته القوى الدولية المنتفذة. وهذه الفئات هي:

أولاً: النساء: انصبت ممارسة الاتجار على النساء بهدف استغلالهن جنسياً بشتى صور الاستغلال ومعظم اللواتي يقعن ضحية هذا الاستغلال من صغيرات السن⁽³²⁴⁾.

ثانياً: الأطفال: وهم فئة مستهدفة للمتاجرة ابتداء من الاستغلال الجنسي وتشغيلهم بالمهن الشاقة وبيعهم كعبيد⁽³²⁵⁾.

ثالثاً: العمال: وهم من يعملون عند صاحب العمل مقابل أجر تحت إشراف صاحب العمل، وكثيراً ما يتعرض العمال للاستعباد والأعمال القسرية وعندها يكون عقد العمل عقد استعباد ويتحول العامل من عامل إلى عبد لا حقوق له وهؤلاء العمال قد يكونوا من النساء والرجال والأطفال⁽³²⁶⁾.

المطلب الثالث: أسباب الاتجار بالبشر:

أسباب الاتجار بالبشر عديدة ولكنها تتداخل مع بعضها البعض ومن الصعب فصلها فالفقر الناتج عن سياسة توزيع الثروة والسلطة في العالم بطريقة غير عادلة يتحكم فيها في الغالب شمال الكرة الأرضية ومع انفتاح السوق العالمي وأسواق الجنس المنظم سواء بواسطة الانترنت أو الوقوف على الطرقات لبيع الجسد دون إرادتهم والهجرة كذلك لأجل العمل حيث يتم أيضاً استغلال الكثير في المصانع والمزارع وفي خدمة البيوت وفي المطاعم كما تلعب الحروب وعدم الاستقرار السياسي والكوارث الطبيعية دوراً في وقوع ضحايا الاتجار بأيدي المجرمين والتي تأخذهم إلى المجهول حيث يتم انتهاك ما تبقى من إنسانيتهم⁽³²⁷⁾.

المطلب الرابع: أثر الاتجار بالبشر:

الآثار المترتبة على هذه المشكلة متعددة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي ومنها:
أولاً: الانعكاسات الاجتماعية ومنها⁽³²⁸⁾:

(323) <http://www.manaralyemen.com/news-4746/html>.

(324) أبو الوفا، أحمد، الاتجار بالأشخاص، الندوة الإقليمية حول الجريمة المنظمة عبر الوطنية المنعقدة في مصر، 28-29/3/2007.

(325) جورجي، هاني فتحي، جريمة الاتجار بالأشخاص والجهود المصرية لمكافحةها والقضاء عليها، بحث مقدم للندوة الإقليمية التي

ينظمها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي حول الجرائم المنظمة العابرة للحدود في القاهرة، 28-29/3/2007.

(326) الحربي، خالد سليم، ضحايا التهريب البشري من الأطفال، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2011.

(327) <http://www.sudanile.com/2008-05-19-17-39-36/115-2009-01-24-08-25>.

(328) سوزي عدلي ناشد، الاتجار بالبشر بين الاقتصاد الخفي والاقتصاد الرسمي، مجلة الحقوق للبحوث القانونية، العدد 2، 2003 كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، ص172 وما بعدها.

- 1- التفكك الأسري وانهيار شخصية الأطفال قبل بنائها والذي قد يؤدي إلى انتشار الجريمة.
- 2- إشاعة الفساد وخرق الآداب للدول المصدرة بعد عودة العناصر التي احترفت السلوك الإجرامي.
- 3- انتهاك حقوق الإنسان وهي حقوق الحياة، الحرية والمأكل، العمل مما يؤدي إلى انهيار البنية الاجتماعية وانخفاض المعدلات الصحية.
- 4- هدر الصحة العامة للدول والقضاء على مقومات الدول بسبب المتاجرة بالأعضاء البشرية.

ثانياً: الآثار الاقتصادية والسياسية ومنها⁽³²⁹⁾:

- 1- ارتفاع معدل الجريمة والتأثير على النظام السياسي للدول الناتج عن تزايد البطالة والفقر وانخفاض معدلات التنمية كل هذا يؤدي إلى إهدار قيمة الردع العام للجريمة بعد إدراك ما حققه المجرم من مكاسب هائلة من النقود.
- 2- دعم الجريمة المنظمة فالدول المصدرة للبشر مسؤولة بطريق غير مباشر عن الاشتراك في دعم الجريمة المنظمة بدلاً من العمل على مكافحتها والتعاون مع المنظمات الدولية بهذا الشأن مما يؤدي إلى تنامي معدل الجريمة الدولية.
- 3- إهدار قيمة العدالة الضريبية.
- 4- زيادة معدل التضخم والقضاء على الطبقة الاجتماعية الوسطى في المجتمع مما يؤدي إلى حدوث اختلال في الميزان الاقتصادي.
- 5- هدر المستقبل الاقتصادي والسياسي للدولة من خلال حرمانها من القوى البشرية فخرمان تلك الدول من عناصر البناء الاجتماعي يعمل على حرمانها من كيان سياسي واقتصادي لها، وأهم تلك العناصر الأطفال فهم دعائم بناء المجتمعات.

المبحث الثالث: تحريم الاتجار بالبشر

الاتجار بالبشر شيء يخالف فطرة الإنسان، لأن الإنسان في فطرته يحب الحرية والأمن في حياته، فالاتجار بالبشر حقيقته انتهاك في حقوق الإنسان، لذلك نهى الإسلام عنه كما سعت الحكومات في معظم دول العالم لوضع أنظمة وقوانين فاعلة لتحريم هذه الظاهرة.

المطلب الأول: تحريم الاتجار بالبشر في الشريعة الإسلامية:

الإسلام أول من حارب الاتجار بالبشر ومما يدل على ذلك ما ذكره أهل التفسير، يقول ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرْضَنَا لَتَرْتَعُنَّهَا لِرَبِّكُمْ يَوْمَ تَبْتِغُونَ} (سورة النور: 33)، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء

الإسلام حرم هذا؛ وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبد الله بن أبي بن سلول المنافق فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن ورغبة في أولادهن ورئاسة منه فيما يزعم لعنه الله⁽³³⁰⁾.
ويقول القرطبي في قوله تعالى: {لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي الشيء الذي تكسبه الأمة بفرجها والولد يسترق فيباع⁽³³¹⁾.

الفرع الأول: جهود النبي (ص) في مكافحة الرق والاتجار بالبشر:

إن المتأمل في التوجيهات النبوية التي رسخها النبي الإنسانية محمد (ص) في العمل من رفع شأن العبيد والإماء يعرف بحق أنها كانت مكرمة للعبيد في الإسلام ومن التوجيهات النبوية في مكافحة الرق والاتجار بالبشر:
أولاً: تحذيره (ص) من إيذاء العبيد: ومن شدة حرصه (ص) على مشاعر هذه الفئة من البشر أنه كان يغضب من إيذائهم أو الإساءة إليهم، فعن أبي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً (اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه) فالتفت فإذا هو رسول الله (ص) فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال: (أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار)⁽³³²⁾.

ثانياً: وصيته (ص) بالعبيد: كان (ص) وهو يوجد بروحه وقد حضره الموت يوصي بالعبيد والإماء، فعن علي قال: (كان آخر كلام رسول الله (ص) الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم)⁽³³³⁾.

ثالثاً: تشريع قاعدة (كفارة ضرب العبد عتقه): شرع الإسلام منفذاً لتحرير العبيد عن طريق تشريع قاعدة (كفارة ضرب العبد عتقه) وهذا لم يكن أيام الجاهلية ففتح حق الحرية للعبد إذا ضربه سيده، يقول (ص): (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه)⁽³³⁴⁾.

رابعاً: أمره (ص) باحترام العبيد والإماء والإحسان إليهم: كان (ص) أرفق الناس بالعبيد، فعن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك قال: فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله (ص) فعيه بأمه قال فأتى الرجل النبي (ص) فذكر ذلك له فقال (ص) (إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه)⁽³³⁵⁾.

خامساً: منع (ص) من الاستهزاء أو السخرية بالعبيد وحذر الفقهاء من استخدامهم الوقت الطويل، وها هو

(330) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، دار طيبة للنشر، ط2، 1999، 324/2.

(331) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، دار الكتب المصرية، ط2، 1964، القاهرة، 169/3.

(332) صحيح مسلم، 92/5.

(333) مسند أحمد بن حنبل 78/1 صحيح وهذا إسناد حسن.

(334) صحيح مسلم، 90/5.

(335) صحيح مسلم، 93/5.

رسول الله (ص) يقول لمن عير العبد (إنك امرؤ فيك جاهلية) ⁽³³⁶⁾.

سادساً: جهود النبي (ص) في حشد الجهود الشعبية من أجل تحرير العبيد يقول (ص) (سلمان منا أهل البيت) ⁽³³⁷⁾.

الفرع الثاني: حرمة الاتجار بالبشر في الشرع:

عمل الإسلام على تحريم صور ومظاهر الاتجار بالبشر فعن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: قال الله تعالى (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره) ⁽³³⁸⁾.

فالإسلام يرى أن الاتجار بالبشر من أبواب الخيانة والظلم والله عز وجل خصم لجميع الغادرين وقد شدد على هذه الأصناف الثلاثة وهم الذين ارتكبوا جرماً شنيعاً يتعلق بحقوق الإنسان فأحدهم غدر بأخيه الإنسان فعاهده عهداً وحلف عليه بالله ثم نقضه والثاني باع أخاه الإنسان الحر والثالث أكل مال أخيه الإنسان الأجير وهو داخل في إثم المتاجرة بالبشر كالثاني لأنه استخدمه بغير حق وخالف الأمر النبوي ⁽³³⁹⁾.

(أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) وجريمة الاتجار بالبشر التي حرّمها الإسلام مارسها المجتمع الجاهلي الماضي والحاضر وقبائل العرب والفرس والرومان قبل بعثة النبي (ص) وكانوا يمارسون هذه التجارة بصور مختلفة فكانوا يقطعون الطرق على الأحرار ويسرقون أموالهم ويبيعونهم في الأسواق على أنهم عبيد وقد مارس الأمريكان مثل هذا السلوك مع الزنوج فأقاموا الهيئات التي تبيع وتشتري فيهم وهم أحرار ومارسوا كل صور التمييز العنصري في حقهم، كما ظهرت الجماعات الربحية المتاجرة بالأطفال والنساء من أجل الاستغلال الجنسي التجاري بالإضافة إلى استغلال هذه الجماعات للكوارث الطبيعية والحروب لممارسة نشاطها، وهذا ما حدث مع الضحايا في البوسنة والهرسك بعدما قام الجيش الصربي بذبحه فتم بيع الآلاف من الفتيات والأطفال، والعالم يسمع ويرى كما كشفت كارثة تسونامي عن أرقام مخيفة لنساء وأطفال تم الاتجار بهم ⁽³⁴⁰⁾، وتحولت أوروبا وأمريكا إلى مراكز كبرى للاتجار بالبشر من جانب العصابات المنظمة التي تحصد سنوياً عشرات المليارات من الدولارات بسبب الاتجار بالأطفال والنساء وذلك وفقاً لإحصائيات المنظمات الأمريكية ⁽³⁴¹⁾، وقد عمل الإسلام على تحريم بيع الأحرار وحارب تجارة البشر بالبشر وحرّم إكراه الفتيات على ممارسة البغاء فقال تعالى: {وَلَا تُكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ

⁽³³⁶⁾ رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، حديث رقم (1550).

⁽³³⁷⁾ رواه الحاكم في المستدرک (3/ 598)، والطبراني (2/ 261) قال الهيثمي في المجمع (6/ 130) رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه وبقية رجاله ثقات.

⁽³³⁸⁾ صحيح البخاري، 2/ 776.

⁽³³⁹⁾ <http://www.saaid.net/mohamed/232htm>.

⁽³⁴⁰⁾ عبد الحميد، عبد الحافظ عبد الهادي، الآثار الاقتصادية والاجتماعية وظاهرة الاتجار بالأشخاص، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2005، ط1.

⁽³⁴¹⁾ حتاتة، محمد نيازي، جرائم البغاء، رسالة دكتوراه - كلية الحقوق، جامعة القاهرة، 1978.

أَرَدْنَ تَحْصِنًا لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا { (سورة النور: 33).

وجريمة الاتجار بالبشر تعمل على انتهاك حقوق الإنسان وتنتهك حقوقهم في العيش في بيئة آمنة فهي تعمل على نزعهم من أسرهم ومن بين آباءهم وأمهاتهم إلى نار الاستغلال الجنسي والتعذيب وهذه المظاهر محرمة في الإسلام حاربها الرسول الأكرم (ص).

(وهكذا كان المنهج النبوي في التعامل مع مظاهر الاسترقاق والاتجار بالبشر ليسجل أمام الله تعالى ثم التاريخ أن النظام الإسلامي هو أول نظام في تاريخ البشرية ناهض الاسترقاق وحارب المتاجرة بالبشر)⁽³⁴²⁾.

المطلب الثاني: مكافحة الاتجار بالبشر في القوانين الوضعية:

لقد عملت دول العالم على مكافحة هذه الظاهرة وسنت لذلك التشريعات الوطنية وبينت العقوبات المترتبة على هذه الجريمة، فعلى الصعيد العربي حرصت جامعة الدول العربية على الاهتمام بالبعد الخاص بحقوق الإنسان بهذه المسألة تنفيذاً للميثاق العربي لحقوق الإنسان الذي اعتمد في عام 2004 في مؤتمر القمة العربي بتونس ودخل حيز التنفيذ عام 2008 والذي نص في المادة (10) على: (حظر الرق والاتجار بالأشخاص في جميع صورها والمعاقبة على ذلك وعلى حظر السخرة والاتجار بالأشخاص من أجل الدعارة والاستغلال الجنسي أو استغلال دعارة الغير أو أي شكل آخر أو استغلال الأطفال في النزاعات المسلحة).

وقد وقعت الجامعة العربية على بروتوكول منع وقوع ومعاينة الاتجار بالأشخاص وخاصة النساء والأطفال، كما تعمل الجامعة على حث الدول الأعضاء ببذل الجهود لإصدار القوانين الوطنية لمكافحة الاتجار بالبشر ونشر البرامج التربوية والثقافية لتوعية كافة الفئات الاجتماعية⁽³⁴³⁾.

كما عملت الجامعة العربية على إطلاق المبادرة العربية لتعزيز القدرات الوطنية لمكافحة الاتجار بالبشر في شهر آذار/ 2010 بالتعاون مع المؤسسة القطرية لمكافحة الاتجار بالبشر ومكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، وقد استجابت الدول العربية لهذا الاهتمام.

أولاً: القانون الأردني⁽³⁴⁴⁾:

نصت المادة (8) من قانون منع الاتجار بالبشر رقم 9 لسنة 2009 على أنه: "يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر أو بغرامة لا تقل عن ألف دينار ولا تزيد على خمسة آلاف دينار أو بكلتا هاتين العقوبتين كل من ارتكب إحدى جرائم الاتجار بالبشر". ونصت أيضاً المادة (9) في نفس القانون على أنه: "يعاقب بالأشغال الشاقة المؤقتة مدة لا تزيد على عشر سنوات وبغرامة لا تقل عن خمسة آلاف دينار ولا تزيد على عشرين ألف دينار كل من:

<http://www.saaid.net/mohamed/232htm>. (342)

الشافعي، محمد بشير، قانون حقوق الإنسان، مكتبة الجلاء الجديدة، المنصورة. (343)

<http://www.lob.gov.jo/ui/laws/searchno.jsp?no=98year-2009>. (344)

- 1- ارتكب إحدى الجرائم الاتجار بالبشر المنصوص عليها في البند (2) من الفقرة (أ) من المادة (3) من هذا القانون.
- 2- ارتكب أيّاً من الجرائم الاتجار بالبشر في إحدى الحالات التالية:
 - إذا كان مرتكب الجريمة قد أنشأ أو نظم أو أدار جماعة إجرامية منظمة للاتجار بالبشر أو انضم إليها أو شارك فيها.
 - إذا كان من بين المجني عليهم إناث أو ذوي إعاقة.
 - إذا ارتكبت الجريمة من خلال الاستغلال في الدعارة أو أي شكل من أشكال الاستغلال الجنسي أو نزع الأعضاء.
 - إذا ارتكبت الجريمة باستعمال السلاح أو التهديد باستعماله.
 - إذا أصيب المجني عليه نتيجة لارتكاب إحدى الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون بمرض عضال لا يرجى شفاؤه.
 - إذا كان مرتكب الجريمة زوجاً للمجني عليه أو أحد الأصول أو الفروع أو الولي أو الوصي.
 - إذا كان مرتكب الجريمة موظفاً عاماً وارتكبها من خلال استغلال وظيفته أو خدمته العامة.

ثانياً: القانون البحريني⁽³⁴⁵⁾:

قامت حكومة البحرين بالتفاعل مع التوجهات الدولية المعاصرة بخصوص مكافحة الاتجار بالبشر، حيث أصدرت المملكة القانون رقم (1) لسنة 2008 بخصوص مكافحة الاتجار بالأشخاص وتضمن القانون العقوبة المقررة والمساعدات المقدمة لضحايا الجريمة والإجراءات التي تقوم بها السلطات لمكافحة هذه الجريمة، كما قامت السلطات الرسمية باتخاذ التدابير التنفيذية للحد من هذه الظاهرة، وقامت المملكة بالتوقيع على العديد من الاتفاقيات الدولية المتعلقة بمكافحة الاتجار بالبشر وتسليم المجرمين أو المتهمين والمحكوم عليهم في هذه الجرائم كما عملت مؤسسات المجتمع المدني على مكافحة هذه الجريمة.

ثالثاً: القانون الكويتي⁽³⁴⁶⁾:

تنص المادة (178) من قانون الجزاء الكويتي رقم (16) لسنة 1960 على أن: "كل من خطف شخصاً بغير رضاه وذلك بجملة على الانتقال من المكان الذي يقيم فيه عادة إلى مكان آخر بحجزه فيه يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ثلاث سنوات ولا تجاوز عشر سنوات فإذا كان الخطف بالقوة أو التهديد أو الخيلة كانت العقوبة الحبس مدة لا تقل عن سبع سنوات ولا تجاوز خمس عشرة سنة فإذا كان المجني عليه معتوهاً أو مجنوناً أو كانت سنه أقل من الثامنة عشر سنة كانت العقوبة الحبس المؤبد، وفي جميع الحالات تضاف إلى عقوبة الحبس غرامة لا تقل عن خمسة آلاف دينار ولا تزيد على خمسة عشر ألف دينار".

القانون العماني⁽³⁴⁷⁾:

تنص المادة (260) من قانون الجزاء العماني الصادر بالمرسوم السلطاني رقم (4) لسنة 1974م على أنه "يعاقب بالسجن من خمس سنوات إلى خمس عشرة سنة كل من استعبد شخصاً أو وضعه في حالة تشبه العبودية". كما تنص المادة (261) من

(345) عبدالعزيز، هشام، الإتجار بالبشر بين الواقع والقانون، مركز الإعلام الأمني، البحرين، 2010، ص 57.

(346) [http://www.nauss.edu.sa/ArDigitalLibrary/ScientificTheses/Documents/Master1426-](http://www.nauss.edu.sa/ArDigitalLibrary/ScientificTheses/Documents/Master1426-1427_CJ_cj12006.pdf)

1427 CJ cj12006.pdf.

(347) [http://www.nauss.edu.sa/ArDigitalLibrary/ScientificTheses/Documents/Master1426-](http://www.nauss.edu.sa/ArDigitalLibrary/ScientificTheses/Documents/Master1426-1427_CJ_cj12006.pdf)

1427 CJ cj12006.pdf.

القانون ذاته على أنه "يعاقب بالسجن من ثلاث سنوات إلى خمس كل من أدخل إلى الأراضي العمالية أو أخرج منها إنساناً بحالة العبودية أو الرق أو تصرف به على أي وجه كان أو استلم أو حاز أو اكتسب أو أبقاه على حالته".⁽³⁴⁸⁾
خامساً: القانون المصري:

بين قانون مكافحة الاتجار بالبشر رقم (64) لسنة 2010 عقوبات تلك الجريمة في الفصل الثاني منه وخصص الفصل الخامس لبيان حماية المجني عليهم ووضع عقوبة عامة لجريمة الاتجار بالبشر وهي السجن المشدد وغرامة لا تقل عن 50 ألف جنيه ولا تتجاوز 200.000 جنيه.

إلا أن مكافحة هذه الجريمة لا بد لها من منظومة عربية شاملة، لمواجهة ما يكون ذلك من خلال شراكة فعالة بين الحكومات ومنظمات المجتمع المدني والقطاع الخاص وذلك بمحاربة الفقر ودعم التنمية والقضاء على الجهل.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث نعرض لأهم النتائج في النقاط الآتية:
 أولاً: أن أي جريمة ضد الإنسان هي جريمة منافية للشريعة لأن الإنسان مخلوق مكرم وهو خليفة الله على أرضه وأن أفضل وسيلة للقضاء على هذه الظاهرة هو الاقتداء بهدي رسول الله (ص).
 ثانياً: أن جريمة الاتجار بالبشر تأخذ بالنمو بشكل ملحوظ وبأشكال وصور مختلفة.
 ثالثاً: يعد الفقر من أهم أسباب ظهور هذه الجريمة.

التوصيات:

- 1- الالتزام بمبادئ الشريعة السمحة للقضاء على هذه الجريمة.
- 2- سن القوانين على المستوى المحلي والدولي التي تكافح هذه الجريمة.
- 3- تفعيل أساليب الحماية من هذه الجريمة.
- 4- التنسيق ما بين الجهات المختلفة للحد من هذه الجريمة.
- 5- معاقبة وتجريم كل من ثبت صلته بهذه الجريمة.
- 6- عقد المؤتمرات والندوات الإعلامية لوضع الحلول الجذرية لهذه الجريمة.
- 7- معرفة أسباب وقوع ضحايا هذه الجرائم ضحية لها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(348) مبارك، هشام عبدالعزيز، الاتجار بالبشر بين الواقع والقانون، البحرين، مركز الإعلام الأمني، 2010.